رياح الجنوب

د. زهيرة البيلي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٦



رياح الجنوب

أحاطت بها أمواج الرمال من كل جانب بسرعة عجيبة .. فأحست بتلك الحبات الدقيقة داخل أنفها وفمها .. تعطلت بهـا السيارة « اللاندروفر » فجـأة وهى فى طريقها الى المنزل المطل على المحيط .. أخذت الرمال تصفع وجهها بقوة الريـاح .. تسللت تحت ملابسها بعنف .. صـفير متواصـل سيطر على المكان .. الصحراء الواسـعة تعوى .. كأن لكل حبة رمل صوتا .. لم تلتق بأشباح من قبل .. لكنهـا تدرك الآن أن للأشباح وجودا .. انها داخل هذه الأصوات التى لفتها وسط العاصفة .. انها داخـل تلك الرياح التى كادت تقتلعهـا من فوق الأرض .

وقفت خلف السيارة حتى تتجنب الهواء العنيف . لكن فجأة اذا بها محاطة بمجموعة من رجـال الصحراء الملثمين . التفوا حولها فأحست بالخوف وأخذت تقول بصوت مرتعش :

ــ غاصت السيارة فى الرمال ولا أستطيع رفعها بمفردى .

قـال أحدهم :

ـ العاصفة أمامها يومان ولا يمكن أن تبقى فى هذا المكان بمفردك • سنبحث عن مكان آخر نحتمى فيه جميعا •

استأنفوا السير وسط الضباب النحاسى اللون الذى انتشر على الأرض فى نسيج رقيق • بعد ساعة من السير المتواصـل تضاعفت كثافـة الهواء • بدت الشمس كأنها تموج وسط السماء الرمادية • عندما ازدادت الموجات الرملية بحثوا عن مكان تحت الصخور العالية • قالت لنفسها « لقد انتهى كل شيء بالنسبة لنا جميعـا • لا ليس من حقى الكـلام بالنيابـة عن الآخرين • اننى هنا بمفردى • أحمل آلامى ويأسى • الاحساس بالخطر يتملكنى • أن أستمر فى السير مع هؤلاء الرجال الذين لا أعرفهم ، انها حقا مخـاطرة • أستطيع أن أظل يومين بدون ماء أو طعام • لكن هؤلاء الرجال ماذا أفعل بهم أو بدونهم • لم يعد لى الخيار وأنا ضائعة وسط الصحراء » •

كان عليهم الاستمرار والسير فى نفس الاتجاه • يتتبعون أحيانا آثار اطـارات السيارات التى سبق أن مرت من هنـا أو يسيرون فى مناطق صيد الغزال المعروفة لدى الصيادين •

اقترب منها أحدهم وقال :

ـ ان السير فى الصحراء بمفردك أمر شديد الخطورة !
لكن لا أحد للأسف يدرك ذلك . الكل يحبون المخـاطرة ،
يشجعون السياحة ، يحفرون آبار البترول . ولا يعرفون أسرار
الريح والمنابع الحقيقية لهذه الأرض .

بدأت الشمس تحتضن الأفق . عندما بدت كأنها تدمى
مثل الجراح لاحت لهم من بعيد بعض المبانى القديمة المهدمة .
أنقاض مبان أثرية غطتها الرمال ولم يبق منها الا بعض الجدران
المتآكلة . لم يكن أمامهم الا الوصـول الى هـذه المبـانى
قبل أن يحل الظلام . وعندما لاحت عبر الطريق الرملى بعض
الأشجار التى أخذت تعصف بها الرياح العاتية . لم يعد أمامهم
سوى عدة أمتار ليصلوا الى ذلك المخبأ الوحيد . فهذه العاصفة
يمكن أن تستمر عدة أيام . ولا أحد يمكن أن يتنبأ بغير ذلك .

التفت بالبلوفر الأبيض الوحيد الذى أخذته معها ليقيها
من برد الصحراء القارص ، ثم تربعت على الأرض أسندت ظهرها
الى أحد الجدران القديمـة . جلس الرجال على مقربة منها فى
حلقة دائرية يتجاذبون أطراف الحديث الذى لم تسمع منه حرفا
واحدا . وعندما انسابت الرمال تتحسس عنقها ، أحست بالنوم
يداعب جفنيها . فقاومت حتى يمكنها ترقب ما يحدث حولها .

وشيئا فشيئا بدا لها صوت العاصفة ساكنا ، هادئا ، بعيدا كما لو كان لا وجود له الا فى أحلامها .

على ما يبدو، إنها استغرقت فى النوم ولم تفق الا على صوت رجل خشن . جذبها من ملابسها بغلظة . فوقفت فزعة . وأخذ يقول لها :

ـ أنت أيتها المرأة .. ما الذى أتى بك وسط هؤلاء الرجال ؟ !

انتظرت قليلا ولم تجب . كان الرجل أسمر نحيفا ، يرتدى عباءة سوداء واسعة . فأدركت أنه زعيم هذه المجموعة من الرجال وأن مصيرها سوف يقرره هذا الرجل الآتى من الجبل .

داخل المكان لاح سلاح أبيض لمع وسط ظلمة الليل . وبمجرد أن حاول الرجل الاقتراب منها ، أخذت تصرخ من الفزع . فأمسك بشعرها الأسود الفاحم ، فانسدل على ظهرها وتناثر جزء منه على وجهها .

أخذت تردد بحدة لكن بصوت مرتعش :

ـ لا أريد أن أموت . لا أريد أن أموت بهذه البساطة ، بهذا الغباء وبلا سبب لمجرد أنكم مجموعة من قطاع الطرق .

فجأة ، ودون أن تتوقع ذلك ، تحسس وجهها برقـة ثم قال بصوت هادىء :

ــ أقسـم لك أن هـذه السـكين لن تنفذ أبدا لذلك الجسـد .

التقطت أنفاسها ، وشيئا فشيئا بدأ يتملكها الاحسـاس بالطمأنينة . بعد أن بدأت خيوط الفجر تلوح من جديد استأنفوا السير حتى وصلوا الى تلك المغارة التى يلوذون بها أحيانا وسط متاهات الجبـال الشاهقة . هناك عرفت القصـة كاملة . انه يدعى « رماح » ، هارب من الثأر بعد أن أصبح مطالبا بأن يقتل أو يقتل . يحمل السكين لكنـه لم يستعملها أبدا ولا ينوى ذلك . بل انه الخوف الذى يجتاح خلجاته .

عندما بدأت الشمس تميل فى خط منحرف هدأت العاصفة. فانهمك الرجال فى رفع الرمال من حول اطارات السـيارة . لم تشأ أن تقف متفرجة وهم يعملون من أجلها . فجلست على ركبتيها وأخذت تعمل على ازاحة الرمال بكلتا يديها من حول العجلات الثقيلة .

التقت نظراتهما . فابتسم لها « رماح » ودهشـت من حرارة وحنان تلك الابتسامة ، لكنها أصرت على ألا تسمع ذلك الصوت ، يجب أن تنساه .

بعد أن قفز الى السيارة محاولا ادارة الموتور قال لرفاقه :

ــ هيا الى العمل ..

دار المحرك وبدأت السيارة « اللاندروفر » تقتلع نفسها من وسط الرمال الناعمة . فأخرج « رماح » منديلا من جيبه وأخذ يمسح وجهه ويديه . ثم اتجه ناحيتها وقال :

ــ يمكن أن تستأنفى الطريق الآن .

دار لسانها ليمسح على شفتيها من شدة الحرارة وقالت له بصوت خافت :

ــ هل لى فى قليل من الماء ؟

شربت ببطء دون أن تتسرب منها نقطة واحدة . مسحت شفتيها بظهر يدها وقالت له :

ــ شكرا .

كلمة واحدة نطقت بها ، ثم اتجهت الى السيارة . أمام عجلة القيادة جلست ودارت السيارة بسرعة . لم تكن الا عدة أمتار ووجدت نفسها بمفردها مرة أخرى وسط الفضاء الواسع .

***

وقفت تتأمل البيت الخشبى الصغير المكون من طابقين • النباتات ، الأعشاب والأشجار العشوائية التى لا تنبت الا فى الصحراء والأراضى الرملية احتلت معظم الحديقة التى لم يعتن بها أحد منذ سنوات • فتحت الباب بصعوبة فلم يكن من السهل مرور المفتاح داخل الكالون وسط الصدأ • هذا البيت لم تجىء اليه منذ أن كانت طفلة صغيرة ، أى بعد أن توفى والدها •

وجدت نفسها فى حجرة واسعة ذات جدران عالية طليت باللون الأخضر • هذا اللون النادر وسط الصحراء • أخذت فى رفع الملاءات التى غطتها الأتربة والرمال من على الأثاث • كل شىء باق فى مكانه • المكتبات التى غطت جزءا كبيرا من الحائط واللوحات الزيتية غير كاملة منتشرة فى كل مكان •

صعدت السلم الخشبى وفتحت احدى الغرف • هنا كانت تنام وهى صغيرة • سرير واحد ودولاب كبير يحتل الحائط • اللعب ، الألوان والأوراق تناثرت على الأرض • عندما دخلت الحمام فتحت الصنبور لتشرب • كان للماء طعم غريب • نظرت الى المرآة وهى مبللة الوجه • أخذت تردد وتقول « أنا مريم •• مريم •• » أما صوت الماضى فلم تعد تريد أن تسمعه • النسيان هو كل ما تريد وتنشد •

عندما أقبل المساء كانت قد انتهت من تنظيف المنزل . ولما خيم الظلام على الحجرة الواسعة ، لمحت من بعيد خيالات وسمعت أصواتا لبعض المارة . أخذت تجوب الغرفة ذهابا وايابا . وعندما أحست بالبرد تكومت فى أحد المقاعد الوثيرة وكأنها تدور وسط الظلمات . من شدة الارهاق والتعب أغلقت عينيها . لم تمر الا ثوان ، سمعت صوتا بالقرب من النافذة .

اقتربت بحذر . فلمحت شبحا أسود رسمت خطوط الليل جزءا منه . وسمعت صوتا ينادى عليها . فوضعت يدها على فمها لتخفى دهشتها : « رماح » !

ترددت فى أول الأمر فى فتح الباب . لكنها وجدت نفسها أمامه . فأحست بأنفاسه تلفح وجهها . شعرت بيديه تتحسسان يديها . سمعت صوته الهادىء الحانى يقول :

ــ مريم ..

نظرت الى الأرض ، ومازال صوت أنفاسه يصل الى أذنيها . احتوتها حرارة وجهه الملثم . بكت دون أن تشعر بالخجل . انسابت دموعها على وجهها ، فشعرت بمذاقها الملح داخل فمها .

سكت رماح الذى لم يكن يتوقع بكاءها . وبدا عليه

أنه يحترم ذلك الانفعال . وسط الظلام لم تتبين الا وشاحه الأسود وانعكاس عينيه الزرقاوين .

تمتمت أخيرا ببضع كلمات :

ــ كيف عرفت أننى هنا ؟ !

ــ لقد تتبعتك منذ رحيلك . قال ببساطة . خفت عليك من الطريق الوعر . كنت أعرف أننى سأراك مرة أخرى .

على الرغم منها تمالكت نفسها . قالت :

ــ تعرف ان هـذا مستحيل !

لم يجب . بل نظر اليها . ولم تعد تسمع أنفاســه . حاول السيطرة على مشاعره ثم وضع يده على كتفهـا ليجذبها اليه . قـال :

ــ تعـالى ...

أن تستسلم لذلك الصوت . قاومت هـذا الميل الذى يدفعها اليه .

ــ لا أستطيع ...

ضغط يده على كتفها بدا ملحا .

ــ لمـاذا ؟ !

كم خافت لحظة أن يتركها وأن تجد نفسها بمفردها من جديدا . قـال :

ــ أعرف أنك ابنة صاحب هذا البيت الفنان الكبير الذى وجد ميتا فى ظروف غامضة منذ عدة سنوات .

أخذت تعض أصابعها من الحيرة والألم . كأنها تعـانى من الخجل والأوجاع . وبحركة مفاجئة أزاح رماح يدها . جذبها ناحيته ، فارتاح رأسها على صـدره . وأحست بضربات قلبـه وهى تخفق بسرعة تحت خدها .

ــ عرفت أنك مريم ابنة الرجل الذى أحب هذا المكان فمات فيه . عاش والدك وسط أهلى وأجدادى . ويقال أنه أحب بدوية من العشيرة . لذلك يظل موته لغزا محيرا . لكن مع كل هذا ليس من حقك أن ترحلى .

كان على حق تماما فلم تكن تريد الرحيل ...

***

كان والدها من ذلك النوع الذى يحترم المبادىء . لكنه كان أيضا مفعما بالمشاعر والحب . سابقا لعصره ، تلقائيا فى انفعالاته . ضاعت ثروته كلها على الناس ، لأنه كان لا يتحمل أن يرد سـائلا .

غندما وجد ميتا فى مرسمه بالدور الأرضى قال الطبيب أنها أزمة مفاجئة . لكن الناس قالوا شيئا آخر . انه أحب تلك البدوية السمراء صاحبة الجسد الممشوق والنظرة الساحرة .

كان والدها يقضى الأيام والليالى فى هذا المكان النائى بعيدا عن صخب وزيف المدينة . وها هى الآن بعد أن سددت بعض ديونه ، تعود لتنزوى فى نفس المكان بعد أن أصبحت لا تملك الا هذا البيت ، سيارتها وفرشاتها .

مرت بها الأيام التالية وهى تعانى من الأرق . تحاول أن تستعيد من جديد مقدرتها على الرسم وموهبتها فى خلط الألوان . فضلت هذا المكان لتصفو وتخلو الى نفسها . لا تريد أن تفكر الا فى العمل حتى لا تموت جوعا . فأعطت دروسا فى الرسم لبعض الأولاد المحيطين ، المتناثرين حولها .

قبل غروب الشمس بقليل خرجت لتسير قليلا فى محاولة لاكتشاف المكان . فمنذ هذا اللقاء الأول مع رماح حرصت على عدم الخروج من البيت . سارت وسط طريق رملى طويل يؤدى مباشرة الى الشاطىء الواسع . فى منطقة واسعة ، غطتها خضرة نادرة جلست تحت ظل بعض النخيل الكثيفة .

فى هذا المكان الخالى استلقت على ظهرها وأغمضت عينيها،

لعلها تتخلص من كل ذكرياتها • لكن بعد لحظات أحست أنها ليست بمفردها • فنهضت • تملكها الخوف وحاولت الاختفاء وسط جزوع النخيـل المتشـابكة • فجـأة وجدت رمـاح أمامها • نظرت الى قدميها الحافيتين وشعرت بالخجل • قـال على الفور :

ــ رأيتك تمرين من هذا المكان ••

سار ناحيتها عدة خطوات • كان شعرها الطويل قد انسدل على أكتافها • فبدت كأنها حيوان مذعور زائغ النظرات • قدمت له بعض القواقع البحرية التى جمعتهـا فى طريقهـا • قـالت بسرعـة :

ــ ألا تريدهـا ؟ !

لمست أصابعه أطرافها التى بدت جامـدة مثل الثلج • قـال :

ــ أهذا ما تبحثين عنه فى هذا المكان ؟

ــ وماذا أفعل غير هذا • كنت على وشك العودة •

ــ لا أعرف لمـاذا تبعتك ؟

ــ يجب أن أذهب •

عندما نظرت اليه كانت عيناه مليئتين بالحزن والألم • ظلت

النظرات معلقة للحظات فى الهواء • شعرت بوجنتيها تشتعلان • فنظرت الى الأرض الخضراء التى تفصل بينهما وقالت :

ــ ليس لدى من ألجــأ اليه •

تحاشى رماح نظراتها كما لو كان يبحث بداخل نفسه عن طريق يبعده عنها • لكنه رد :

ــ أشعر بضعفى ••

بعد فترة صمت • التفتت ناحية البحر الواســع وقالت بصــوت هادىء :

ــ لا أعرف الســعادة الا أثناء النوم • وعندما أفيق يبدأ الكابوس • أشعر كأننى وسط جزيرة جرداء ، محــكوم على بالسجن • لكن ما هى الجريمة التى ارتكبتها ؟ لا أعرف •

أحســت بحرارة نظراتــه تتحسس جســدها • التفتت اليه وقــالت :

ــ لمــاذا ولدت هكذا ؟ !

ــ آمل أن توضحى لى بعض الأمور •

ــ المشكلة •• أنك مستحيل أن تفهم •

تقلصت تعبيرات وجهه • نظر مرة أخرى الى الأرض • فأسرعت بالقول :

ـ هأنا قد جرحتك •

ـ الاحساس الحميم قد جمع بيننا • لكن فى مثل هـذه الظروف التى أعيشها تظنين أن كل شىء مستحيل •

بعد فترة أخرى من الصمت • قالت له :

ـ أتعتقد أننى أرفض اللجوء اليك ؟

ـ أشعر بالاحباط الذى استولى عليك • لكننى لا أعرف السـبب •

ـ سأحكى لك عن حياتى •• فمنذ سنوات ••

وقفت جامدة أمامه ، تحاول أن تخفى وجهها بيديها ، بعد أن فشلت فى اخفاء تلك المشاعر الانسانية التى يغيب فيها العقل• أحست به يقاوم نفسـه حتى لا تلمسها يداه • قال بصـوت خـافت :

ـ كل ما أطلبه منك ، هو أن أراك مرة أخرى • سآتى الى هنا عند كل غروب • فلن يرانا أحد •

بعد اشراقة بسيطة ، اختفت أشـعة الشمس • فنظر اليها رماح مرة أخرى قبل أن يعطيها ظهره ويرحل •

***

وقفت خلف النافذة تستنشق هواء البحر المحمل برائحة اليود والملح • من بعيد لمحت هياكل بعض المنازل الخشبية الصغيرة المتناثرة • فى هذا المساء ساد الصمت ، ولم تكن هناك الا موسيقى غامضة لهدير الأمواج وارتطامها بالصخور، فبدت كأنها تنادى على النورس الذى أخذ يحلق فى السماء على ارتفاعات منخفضة •

وسط هذا الجو الشاعرى ، حاولت استعادة مقدرتها على الرسم • فأخذت تعبث بالأنابيب الزيتية المتعددة الألوان • تحسست لزوجتها وحاولت وضعها على اللوحة البيضاء أمامها لعلها تنجح فى تكوين شكل أو صورة •

مر أسبوع بأكمله لم تذهب فيه الا للسوق الوحيدة الموجودة بالمنطقة • هذه السوق تطل على ربوة عالية ، تنتشر فيها المقاهى التى ينبعث منها صوت الموسيقى فى كل أوقات اليوم • على النواصى جلس الأطفال والصبيان يبيعون المنتجات السياحية • مداخل المنازل المظلمة استخدمها المتسولون للاختباء من مضايقات الأولاد • بعض النساء الملثمات ، واللاتى ترتدين المينى جيب وقفن جنبا الى جنب ، يقلبن فى البضاعة التى رصت على الأرض •

عندما لاح يوم جديد بدت السماء صافية بلا سحب •

أحست مريم بريح خفيفة آتية من الجنوب . فسارت فى طريق غابة النخيل .

فى نفس الوقت توقف رماح قليلا ، ليتلفت وراءه حتى يتأكد أن أحدا لن يراه . شعرت بوجوده لكنهـا لم تنظر الى الوراء . فقال :

ـ لقد جئت .

دون أن تشعر بالاهانة أو الضعف قالت :

ـ جئت بعد أن أقنعت نفسى أننى فى حاجة الى المساعدة.

تردد قليلا قبل أن يقول :

ـ هأنا أمامك .. على استعداد لسماع كل ما تريدين .

نظرت اليه دون أن تنطق بكلمة . فأكمل :

ـ أعرف مخبأ بعيدا عن الناس . لا يبعد كثيرا .

سارت خلفه وهو يشق النباتات الكثيفة بيديه . ثم قادهما طريق رملى قصير الى صخرة عالية تسلقاها بحرص حتى وصـلا الى القمـة . لم تكن الا عدة خطوات ووجدا ذلك المخبـأ الخفى الذى أحاطت به الخضرة من كل مكان .

التقطا الأنفاس بصعوبة بعد أن أخذا يتصببان من شـدة

العرق • من أعلى كانا يطلان على المحيط الذى بدا كأنه ملكا لهما • اليوم ولأول مرة رأت رماح بالملابس المدنية العادية • فالتفتت اليه وقالت :

ـ أهنئك على هذا الاكتشاف • على ما يبدو أن المخبأ هو عش للنسور والصقور •

ـ انها الوحدة • فى هذا المكان أهرب الى نفسى •

أسندت ظهرهاعلى الصخرة لتكون فى مواجهة البحر • فأخذ رماح يتأملها وهو يبتسم • بعد أن ظل صامتا بدأت الاعتراف :

ـ أحببت فيه الشجاعة • لم أكن أدرك فى ذلك الوقت أن الشجاعة يمكن أن تجتمع مع الخداع والمكر •

كانت ما تزال تنظر الى البحر كأنها توجه حديثها اليه • ثم سمعت رماح يقول :

ـ أدرك ما تقولين •

ـ كان شابا شديد الحسن ، فارع الطول • لم يتأخر يوما عن رعايتى والاهتمام بى • يتهمنى أحيانا بالقسوة عندما أرفض أن يقبل يدى • وفى أحد الأيام أحسست أننى حقا شديدة القسوة •

قاطعها قـائلا :

ـ ثم قررت أن تتخلى عن قسوتك .

ـ نعـم .

على ما يبدو أنه كان يريد أن يستدرجها لتكمل الحديث .
فقـالت :

ـ انك لا تستطيع ان تفهم هـذا لأنك لست امرأة .
لست امرأة خلقت لكى تطلب للزواج .

سكت برهة ثم رد :

ـ وهل طلبك للزواج ؟

ـ كان يريد منى أن أسافر معه . فى البداية رفضت .
لكن بعد أن ودعنى ، تركنى ورحل ، لم تجف دموعى . لم
تمر الا عدة أيام ولحقت به فى العنوان الذى تركه لى .

قاطعها قائلا :

ـ وسـافرت ؟

توقفت برهة عن الكلام ثم أكملت :

ـ سافرت الى العنوان الذى تركه لى . وهنـاك دخلت
بيتا قديما باليا . مكان أحسست فيه بالشبهة من نظرات الناس

وبمجرد أن نطقت اسـمه • حقيقة أنه رحب بوجودى • لكن لأول مرة شعرت أنه انسان آخر ، انسان لا يعرف الصـدق ، عبد لنزواته وأنانيته • أنا لا ألتمس لنفسى العذر لأنه لم يرغمنى على شىء • ولم يكن فى استطاعته ان يأخـذنى بالقوة • كان يمكن أن أرحل ثانيا وأعود من حيث جئت • لكن بعد أن ذقت مرارة الوحدة خفت أن أعود كما أتيت •

فى لحظة معينة التفت اليها رماح • فنظرت اليه مباشرة فى وجهـه الذى علته الحمرة بعد أن تملكه الغضب • فبدا كأنه يراها عارية أمامه ، مجردة من الثياب • قالت :

ــ وأسلمت له نفسى •

نظر رماح الى الأرض وهو يردد :

ــ لقد سمعت ما قلت •

ــ أترى ؟ لذلك أشعر أحيانا بالخزى والحزن • فأنا التى اخترت طريقى •

بعد أن سكتت عن الكلام تحولت بجسدها كله ناحيـة البحر • قال :

ــ لم أطلب منك أن تحكى لى كل هذه التفاصيل •

ـ أردت أن أوضح لك أننى لم أرتكب خطـأ فقط ، بل الأكثر من ذلك اننى فعلت هذا مع انسان لم أكن أحبه .

ثم أخفت وجهها بين يديها وأخذت تردد :

ـ فعلت هذا حتى أكون انسانة أخرى . كنت قد ضقت بنفسى . فأصبحت كمن غرست سكينا فى قلبها . انه نوع من الانتحار . عمل ارتكبته فى لحظة يأس واحباط . كنت أعرف أننى لو عدت كما أتيت لشعرت حتما بالموت . لكننى خنقت نفسى بيدى . واحساسى بالخجل هو الذى جعلنى أعيش من جديد . هـذا لمجرد أن أشـعر أننى لست مثل الأخريات . لن يكون لى أولاد أو زوج .

توقفت تماما عن الكلام كأنها تفهم أو تدرك معنى ما تقول. أما رماح فبدا كأنه لم يفهم حرفا واحدا .

حاولت اخفاء دموعها . اقترب منها دون أن يدرى وهو مازال ينظر الى الأرض . كأنه لا يستطيع أن يبعد عن خيـاله تلك الصورة وهى تسلم نفسها .

تضـاربت المشاعر بداخله بعد أن أصبحت بالنسبة اليه الضحية وفى نفس الوقت المرأة التى تسلم نفسها بارادتها .

ابتعد عنهــا عدة خطوات ثم وقف يتأمل البحر وسلسلة الجبال البعيدة المتشابكة • التفتت اليه وقالت :

ـ هل أكمل حديثى ؟ هنــاك بعض الأشياء البسيطة على أن أضيفهــا •

ـ لا أريد أن أسبب لك الألم •

ـ فى اليوم التالى كان قد غادر المكان • وعدت من حيث أتيت • بعد أن رفضت مساعدة أحد ، جئت الى هنا • الآن وقد عرفت الحقيقة ، هل لديك نصيحة تقدمها لى ؟

ـ بكل تأكيد •

ـ هل ستغفر لى ؟

ـ يبدو أنك تهتمين بهذه المغفرة ! لكن الأهم من هــذا هو أن تغفرى لنفسك • وطالمــا أنت فى هــذا المكان الموحش لن يتحقق لك هذا •

ـ تقصد أننى يجب أن أرحل من جديد •

التفت اليها وقال بسرعة :

ـ نعم • يجب أن تعيشى وسط الناس • فالهروب لافائدة منه • وأنا على استعداد لأقدم لك أى مساعدة تطلبينها •

ـ أمهلنى عدة أيام فقط للتفكير .

تصنع الابتسامة وهو يقول :

ـ لنعد الآن .

عندما اقتربا ثانية من غابة النخيل ، سمعا صوت أقدام . فاختبآ وسط الأحراش ، وبقيا هكذا عدة لحظات أحست فيها بحرارة أنفاسه وهى تلفح وجهها . انطفأت ابتسامته المرسومة فجأة وهو ينظر اليها . كان يعرف أنه لو وضع يده على كتفها فلن تقاومه . أحس بتلك الحمرة التى اجتاحت وجهها فقال :

ـ يجب ألا نلتقى بمفردنا ثانيا .

بعد برهة وبعد أن خلا الطريق . قال :

ـ يمكن أن تذهبى الآن .

***

تعمدت البقاء بمفردها . مرت بها الأيام ثم الأسابيع وهى لا تكاد تغادر البيت . حتى الذهاب الى السوق وهو التسلية الوحيدة امتنعت عنها . وأخذت تجوب الحجرات لتستقر فى النهاية فى مرسم والدها . تجلس حيث كان يبقى بالساعات أمام

لوحاته . حاولت الرسم من جديد لعلها تتوه وسط الألوان ، فتتوه منها نفسها . لكن عندما أحست بعدم جدوى كل هـذا قررت العودة الى العاصمة لزيارة الطبيب .

عندما فتحت لها الممرضـة الباب ، دخلت . كان عليهـا الانتظار . بعد برهة اقتربت منها الممرضة . قالت :

ـ الآن يمكن أن يراك الطبيب .

كان الطبيب يجلس فى آخر القاعة خلف مكتبه الواسع . بعد أن نظر اليها طويلا سأل :

ـ مم تشكين ؟ !

قالت بصوت واهن :

ـ أعانى من الوحدة . كما أحس بالألم والضيق عندما أجد نفسى مضطرة للكلام ، للاجابة على تساؤلات الناس . أخاف من الكلام الذى قد يعيب أو يجرح .

قاطعها الطبيب :

ـ مريم .. تعلمين جيدا أننى كنت صديقـا لوالدك . كنت أحبه وأحترمه . لكن الآن يجب أن تثقى فى العـلم . فنصف الشفاء يعتمد على الثقة فى الطبيب .

ـــ والنصف الآخر ؟

ـــ النصف الآخر ، يعتمد على الثقة فى المريض • لقد أتيت لاستشارتى أليس كذلك ؟

رماها بنظرة متفحصة وأكمل :

ـــ أنت امرأة ذكية • أعرف أن القدر لم يكن كريما معك•

قاطعته بدورها :

ـــ بكاء أبى ونحيبه مازال يصم أذنى • لم أكن أدرك بعد معنى هذه الأصـــوات التى صدرت عنه لتمزق قلبى • لم أكن أفهم ان نحيب الرجال مثل القتل ، موات • فعندما تخلت عنا أمى وأنا صغيرة لم أكن أدرك معنى الخيانة بعد •

معنى المــآساة كان له مذاقا آخر بالنسبة للطبيب • فقال لها :

ـــ يجب أن تتزوجى •

قالت على الفور حتى لا تعطيه فرصة ليكمل كلامه :

ـــ تعرف أننى لم أخلق للزواج ، انه الفن فى حياتى •

ـــ لم يكن لك يد فيما حدث • ولا داعى لأن تدفعى ثمن أخطــاء الآخرين •

نظر اليها الطبيب طويلا كأنه يرى الغريق الكامن فى عينيها. ثم التفت الى المكتبة خلفه . نهض وأحضر لها عدة كتب . قال :

ـ اقرئى هذه الكتب ، ثم تعالى لنتحدث مرة أخرى .

خرجت الى الشارع ، فقد كانت تشعر بالاختناق ، خاصة من الأماكن المغلقة . سارت وسط الناس ، فأحست كأنها حيوان هارب . عقلها ونفسها هائمان فى مكان آخر .

بعد أيام وأسابيع عادت مرة أخرى حيث مرسم أبيها . عندما فتحت الباب وجدت عدة ورقات بيضاء على الأرض . أخذتها ووقفت خلف النافذة تنظر الى البحر . من بعيد لمع نور المنازل الصغيرة ، فتلألأت الأضواء وسط الظلام كأنها سكين تريد أن يمزق كل احساس جديد . وقرأت :

« أرجو أن تأتى . أريد أن أراك . سأنتظرك اليوم وغدا عند الكوخ بعد أول منحنى على الشمال » .

نظرت الى السماء السوداء ثم قرأت الورقة الأخرى :

« لقد انتظرتك طيلة اليوم . فاذا لم تأت سأصاب بالحزن واليأس » .

أخذت تكرر هذه العبارات مرات ومرات • ثم اعتصرتها فى يديها بين أصابعها المتشنجة •

نظرت مرة أخرى من النافذة • فبدت السحب كأنها تنذر بعاصفة جديدة • فرياح الجنوب لا تهدأ أبدا وعندما تصطدم بهواء البحر تثير الزوابع •

مع ذلك ، خرجت الى نفس الطريق الرملى الذى حفظته قدماها • بعد أن اجتازت غابة النخيل وجدت نفسها أمام كوخ قديم • نادت على رماح بصـوت خافت وهى تتلفت حولها وسط حفيف الأشجار الذى أثار الرعب فى قلبها •

التفتت فرأته أمامها على بعد خطوات منها • رأته واقفـا أمام الباب • كان قلقا ، كل ما حوله يوحى بالوحشية • ليس الجنون لكن الوحشية البريئة ، العفوائية ، الطبيعية •

علت وجهه ابتسامة قلقة • قال :

ـ تعالى الى الداخل • قد تشتد رياح الجنوب •

دخلت الى الكوخ وسمعت خطواته خلفها • التفتت اليه وظل كل منهما ينظر الى الآخر • ثم قالت :

ـ أكنت تنوى قضاء الليل هنا ؟ !

أشار بالايجاب . فأكملت :

— أتعرف ؟ لم أكن هنا طيلة الأيام والأسابيع المـاضية. كان يمكن ألا أجيء اليوم أيضا .

خيم الصمت . ثم تقـدم ناحيتهـا خطوة ثم خطوتين . قـال :

— لقد تملكنى القلق من أجلك .

نظرت اليه لترى اذا كان يكذب عليها ، ولم يكن كذلك . هى أيضـا بدا عليها الصـدق عندما صرحت له بأنها لم تكن تقصد ايلامه بذلك الغياب .

تقدم ناحيتها . تناول يدها برقة . فالتقت نظراتهما . لم تمر الا لحظاتووجدت نفسها بين ذراعيه . أغمضت عينيهـا لعلها تجد الطريق الى شفتيه . فأحست بعذوبة مشاعره ودفء جسـده .

ثم فجـأة هزها بعنف وأبعدها عنه . فبدت لها نظراتـه المعذبة كأنه هارب بعد ارتكاب جريمة . خرج مسرعا من الكوخ كأنه يلقى بنفسه وسط الواقع الأليم .

جرت خلفه . تحسست كتفه برقة وقالت :

ـ اغفر لى لم أكن أقصد استغلال لحظة ضعف ٠

بعد أن تمالك نفسه رد :

ـ لم أسع الى اغرائك ٠ لكننى تصرفت مثل الأحمق ٠ أحمق بالفعل ٠ هأنا ألوم نفسى ٠

بقيت فى مكانهـا لا تقوى على الحراك كأنها سجين فى انتظار العقوبة ٠ قطع هـذا الصمت بقوله :

ـ ما حدث قد حدث ٠ فعليـك الآن مساعدتى لتعود الأمور كما كانت ٠

احتفظت بصمتها ٠ فأكمل :

ـ لابد أن أسـافر لأمر مهم ٠ لا أعرف كم من الوقت سأظل غائبـا ٠

نظرت اليه فجأة ، ثم بسرعة حولت عنه نظراتها ٠ فأخذ يتعثر فى كلماته وهو يقول :

ـ لا أعرف كيف ستدبرين أمورك ٠ لكن اذا كنت فى حاجة الى مساعدة ، فأنت تعرفين مكان رفاقى ٠

بدا رماح كأنه يفقد صوته ٠ خرجت الكلمات من فمـه كأنها تأتى من بعيد ٠ أحس بهذا الدور الكريه الذى كان عليه أن يؤديـه ٠

أعطته ظهرها وهى تقول :

ــ أهذا يعنى أننى لن أراك أبدا •

ــ لا أستطيع أن أكذب عليك •

ــ حتى لو قلت لك ولأول مرة انك أصبحت مهما بالنسبة لى •

ــ اذا كنت قد اخترت الرحيل فهذا لأمر مهم •

نظرت بعيدا وهى تقول :

ــ سأقبل مساعدة رفاقك لى • لكن أتخاطر بحياتك بهذا الرحيل ؟

ــ انها حياتى ، حريتى أو موتى •••

أغمض عينيه برهة كأنه تخلص من مهمة صعبة • ثم عاد يسألها :

ــ سترحلين ؟

ــ لست متأكدة بعد •

نظر الى الأرض وقال :

ــ اذا رحلت اتركى لى عنوانك •

ـ أشكرك .

ـ أنا الذى يجب أن يشكرك .

نظرت الى عينيه . كان ذلك النداء مازال بداخلهما . واحساسه الدفين بالقرب منها مازال موجودا .

قال :

ـ مريم .. أنت انسانة حساسة . وأخجل من نفسى لأننى لم أشعر بهذا مبكرا .

قالت بحرارة :

ـ نعم .. انسانة حساسة .

نطقت بتلك الكلمات وهى لا تشعر بأى اعتزاز أو فخر ، لكن المرارة التى أحست بها ربما تكون مرارة شفتيه .

التفتت اليه . فقدم لها يده مصافحا . ترددت قليلا قبل أن تمد يدها . لكنه صافحها بحزم يحرم عليها أية لحظة جنون . ثم تمتم قائلا :

ـ لن أنساك أبدا .

رفعت وجهها ناحيته وهى مازالت تنظر اليه . تماما كما لو كانت تريد منه أن يرى شيئا يجول بخاطرها .

بدا الوقت كأنه تجمد • لكن الواقع بات يؤكد نفسه • المشاعر والانفعالات لم تعد لها موازين • كأنها حبكة لا تخضع لمنطـق •

نظر الى الأرض وترك يدها تسقط في الهواء •

***

بعد أن استسلمت لرغبته فى الفراق بدون تفكير • لم يعد أمامها الا الانتظار ، حتى رياح الجنوب التى تأتى عادة محملة ببعض الحرارة لم تفلح فى التخفيف من برودة الأيام •

وسط الظلمات بدا لها المكان موحشا خاويا • هكذا كان عالمهـا ، التخبط وسط الأوهام والتعلق بالذكريات •

أحست بآلام فى رأسها فضغطت بأصابعها على جبهتهـا لعل تلك الفكرة السوداء تبتعد عنها « هل أصيب رمـاح •• هل جرح •• هل مات » •

ازدادت سرعة الرياح هذه الليلة • فبدا صوتها يعصف بفروع الأشجار كأنه أنين •

قالت مريم لنفسها « الحب ، من يستطيع أن يفسره •• انه الشىء الوحيد الذى لا يمكن شرحه » •

بعد أن مرت عدة شهور لم تعرف خلالها شيئا عن رماح • حاولت أن تتمالك نفسها • هذه المرة بدأت تشعر بكل ما يحدث لها • لكن مع ذلك هى تفضــل الشــك عن اليقين • لم يعنى صمتها الا شيئا واحـدا « هل أكرهك ؟ هل أنساك لأننى لم أعد أتبين ملامحك » ؟

انفجرت فى البكاء وبللت دموعها الوسادة بجانبها • مع ذلك تحاملت على نفسها ونهضت • بالرغم من احساسها بالبرودة فتحت النافذة • نظرت الى السماء وعرفت من النجوم أن الفجر قريب • مع النسمات الباردة انتابتها قشعريرة اهتز لها جسدها• فألح عليها خاطر « لا أريد الرحيل •• لا أريد العودة » •• حقيقة واحدة ارتعدت لها أوصالها « هل مات •• كل من أحببت بعيدا عنى ؟ ! » •

ارتعش الفنجان فى يدها • حتى الشاى الساخن لم يفلح فى القضــاء على نزلة البرد التى استقرت فى صــدرها منذ عدة أيام • مع ذلك تحاملت على نفسها ونزلت الى الصالون الواسع بعد أن وضعت على كتفيها وشاحا كبيرا من الصــوف أخفت به قميص النوم •

كانت تقضى معظم وقتها جالسة هكذا • تتحـايل على

نفسها لعلها تجد سلوتها فى الرسم • عندما سمعت صوت الباب يدفع ببطء ، أفاقت من شرودها •

حاولت النهوض لكن خانتهـا قدماها • فرفعت عينيهـا ووجدت أمامها رماح على بعد خطوات منها •

نظر الى الأرض • قال وهو يحاول أن يدارى خجله :

ـ من الأفضل أن أحضر لك الطبيب •

ـ لا ، أرجوك • فأنا أعرف ما ألم بى •

لم يستطع رفع عينيه عنهـا • كان الشحوب باديـا على وجهها وجسدها الهزيل بات مثل ورقة الشجر •

سـألها :

ـ أتشعرين بألم ما ؟

ـ لا أعرف كيف أصبحت بهذا الوهن والضعف ؟ !

خيم الصمت المعهود بينهمـا • كان رماح يعرف لمـاذا عاد • كان يريد أن يراها مرة أخرى • كما لو كانت شخصيتها الغريبة الغامضة هى التى ولدت لديه المشاعر الحميمة • كان عطشا لرؤيتها من جديد • عطشا لا يمكن أن يغفره لنفسه • ولا يمكن أن يرويه شىء آخر •

بحركة خفيفة رفعت يدها لتمسح وجنتيها • ثم لتتحسس عنقها بأصابعها • قال :

ـ لا داعى للبكاء • أكان من الأفضل ألا أعود ؟ مع أننى كنت أنوى دائما العودة اليك •

تمالكت نفسها • أما هو فقد اجتاحه ذلك الاحساس الحميم بالرغبة • لكن أتكفى دموعها ليحطم ذلك الحاجز الذى منعه من فهمها وتقدير موقفها ؟

أحست به كأنه يريد أن يحترق فى عينيها ، فى جسدها ، يصير رمادا فيتلاشى فى الهواء • كان يمكن أن يتحكم فى رغبته أكثر من ذلك ، لكن أين يذهب ايقاع الزمن داخلنا •• ؟

قالت بصعوبة :

ـ كنت أظن أننى لن أراك أبدا •

أخفى مشاعره من جديد • بعد أن وقع فريسة لتلك الأعراض الغامضة التى سبق أن تملكته فى الكوخ الصغير • دق قلبه بعنف وارتعش كيانه • كان يعرف أنه لو التقت نظراتهما مرة أخرى فسيضيع منه كل شىء • كان الصمت بينهما ثقيلا حتى بعد أن باتت لحظة الحقيقة لغة •

حاولت مريم النهوض لكنها لم تقو على الوقوف •

فتعثرت وكادت أن تقع على الأرض • دون أن يدرى مد لها يده • بخجل شديد تركت له يدها • ولم يعد فى استطاعته أن يحول عنها عينيه •

أحس فى نظراتها بالامتنان • هـذا الدفء الذى اختلط بحزنها القديم • خافت أن تجرح مشاعره • فلم يكن أمامهـا سوى الانتظار • ترقب ملغم بالحياء والخوف • مرت اللحظات كأنها دهر من الزمان • كأنها الخلود •

غابت الابتسامة من شفتيه ، لكن أصابعه عانقت يدها • ووجدت رماح بجانبها على ركبتيه • التقت شفاههما بقوة متوحشة أصابتهما بالذهول • اقتلعت شفتيها منه • فانهالت قبلاته على وجهها • تحسست يداه شعرها واحتضن هـذا الجسد الرقيق الهش • ثم فجـأة أخفى وجهـه فى باطن كفيهـا وأخذ يردد « يجب ألا •• يجب ألا •• انه جنون » •

تحسست وجهه الرقيق وأحاطته بذراعيها ، فبقى جامدا فى مكانه ، تعتصره المشاعر المتناقضـة المتضاربة كأنه طفل يريد الهـرب •

رفع رأسه ونظر اليها برغبة متوحشة • فالتقت شفاههما مرة أخرى • ألقى نفسه بقوة بين أحضانها ، فتحرك المقعد من

مكانه • ثم نظر الى قدميها الحافيتين • باعدت وجهها جانبا حتى تعطيه فرصة أخيرة للابتعاد • لكن نظراته باتت مصرة تتأمل صدرها وهو يعلو ويهبط • فتحسس وجهها برفق •

انساب نور الشفق الخافت داخل غرفة النوم • نظر رماح الى السرير ، مازالت نظراتهما القلقة الحائرة تحملهما الى ما وراء كل شيء • كان يمكن أن تقع أمامه • لكنها تحاملت على نفسها • فأخذها بين ذراعيه وهو يقبلها • وقع الوشاح الصوف على الأرض ولم يعد يفصل بينها وبينه الا ذلك القماش الرقيق الخفيف لقميص النوم • مال جسداهما ومازالت شفاههما لا تفترقان • اختلطت سنوات الحرمان الطويلة بتلك المشاعر الدافئة فلم تعد تبقى الا لحظات الجنون والحرام المتوحشة •

عندما ترك أخيرا شفتيها • بقيت بين ذراعيه • فحملها ليلقى بها على الفراش الواسع • بقيت جامدة فى مكانها • فأمطر ذراعيها بقبلاته المحمومة •

خلع ملابسه بسرعة وجنون كأنه سوف يلقى بنفسه وسط نبع ماء لينقذ أحد الغرقى • ووقع زرار قميصه فى أحد الأركان • لكنه لم يعره انتباها • وبخفة تمدد فوق جسدها

وقد انهالت عليها قبلاته العطشى مثل المطر الندى الذى جـاء ليروى أرضا جرداء •

كان جسـدها المسالم المستسلم ينتظر • ولمست قدمـاه العاريتان قدميها • لم يكن بوسعه الانتظار • رفع عنها قميص النوم الرقيق •

بتوتر قاس عثر على ما أراد • عنـدما أحس بجسـدها يتوارى ويتلوى تعلق بها ، لا يريد أن ينفصل عنها • فمنذ تلك اللحظة باتت هى الحلم ، هى الحقيقة• هكذا أخذ يتدفق مرات ومرات وهو يردد : « مريم •• مريم حبيبتى » •

❋ ❋ ❋

بقيا على الفراش الأبيض الناصع بلا حراك ينظران الى سقف الحجرة • حامدين مثل الثلج ، لأنهما وقعا فى الحرام • لم يكن رماح يريد الخروج من غفلته • فأصبحا مثل مدينـة سقطت عليهـا قنبلة ذرية • السماء الندية الصافيـة تبددت • الكائنات اقتلعت من على الأرض ، المبادىء ، المستقبل ، الثقة فى النفس والمقاومة • مع ذلك كان ضميرها الانسانى ينبض

ليختلط مع احساسها بالذنب الذى انساب بين عروقهما فامتزج بدماء الحب .

سمعا صوت أقدام خلف النافذة . قال لها :

ــ ثورة مشاعرى أشد عنفا من ذلك اليوم فى الكوخ .

بدلا من أن ترد عليه ، ضغطت مريم على يديه بقوة تريده أن يكف عن لوم نفسه .

أرادت أن يلوذ بالصمت . لكن ضميره اليقظ أصر على الكـــلام :

ــ ماذا سنفعل ؟

ــ لا أريد أن أرى ما بعد هذه اللحظة .

ضمها اليه مرة أخرى وقبل جبهتها . ثم نظر الى السقف وقـــال :

ــ أريد أن أصرح لك أننى تخلصـــت من مشـــكلتى الأزلية . ذلك الخوف الذى كان يسيطر على روحى .

ــ لم أطلب منك شيئا انها غلطتى وحدى .

ــ لكنك حذرتنى . كنت أعرف وأنا آت الى هنا أننى ضعيف . لقد استسلمت لذلك النـــداء بداخلى . فكنت مثل الأعمى .

ـ لقد أردت أنا ذلك . قالت بحزن دفين .

أخذ يتحسس شعرها ويقول :

ـ مريم .. انه أحلى اسم نطقت به .

لاذت بالصمت . مرت دقيقة . كان مازال يتحسس شعرها . لكنه ظل شاردا بعيدا . بعيدا .

فقالت أخيرا :

ـ أعرف أنك لا تستطيع أن تتزوجنى .

ـ يجب أن أتزوجك . فلن أحترم نفسى لو فعلت غير هذا .

ـ أنت مخطىء . لا أستطيع أن أكون زوجة لك .

ـ لا تقولى ان علينا أن نفترق . ولابد أن أعيش كما لو أن شيئا لم يحدث .

صمتت . لكنه قرأ الكثير فى عينيها . فمال برأسه على ذراعها وقال :

ـ الى هذا الحد أنت لا تثقين بى .

أخفت رأسها فى الوسادة ثم قالت :

ـ ولماذا لا .. لكن الأهم من كل هذا هو أننى أحبك .

اعتصرها بين ذراعيه وهو يحـاول مداراة الدموع التى امتلأت بها عيناه . ألهذه الدرجة تكون التضحية ويكون المعنى الكبير للحب . أحس رماح بالاحتقـار لكل جنسه . أهكذا يكون الرجال. الأنانية والجبن .

قـالت :

ــ لقد وقعنـا فى الحرام . ولم يعد أمـامى الا المعاناة والألم . فأنا قادرة على ذلك . لقد خلقت للعـذاب . وأنـا أستعذبه . يمـكن أن أتحمـل كل شىء فى هـذا الوجود الا فكرة موتك .

شعرت أنه قد اكتشف الحقيقة أخيرا . اتجهت الى النافذة كما لو كانت قد شفيت تماما من المرض . بعد أن تسـاقطت حبات المطر على الزجاج التفتت اليه . فاقترب منها وقال :

ــ لا تطلبى منى تفسيرا لمـا حدث فى رحلتى الأخيرة . فما جرى قد مر وفات . فقد واجهت الموت بمفردى . حملت كفنى فوق يدى وواجهت أعدائى وجها لوجه . كنت أطمع فى الصفح ، لكننى مع ذلك كنت على بعد خطوات من فنائى . ولأن حبك كان بداخلى انتصرت على ضعفى . فنلت المصالحة الأبديـة .

قالت فى دهشـة :

ــ تلك الخرافة مازالت تعيش بيننا .

أمسك برأسها . فأكملت :

ــ أرجوك .. ارحل بعيدا عنى .

قــال :

ــ لم يتخيل أحد من الحاضرين كيف يمكن أن أكون قويا عنيدا . لكنها قوة الطبيعة ، انها حلاوة الروح . انها الرغبة فى الحياة من أجلك .

نظر اليها ثم أضاف :

ــ أهذه هى مكافأتك لى . لقد خاطرت من أجل أسمى المعــانى .

ــ حقيقة أنك تفكر فى سعادتى . لكن من أعماق نفسك أنت لا تستطيع أن تتزوجنى .

أعطته ظهرها ، فاقترب منها وقال :

ــ كيف تجرئين على قول هذا ؟

لم تجب . فأكمل :

ــ كل ما أطلبه منك الآن أن تحاولى أن تفهمى .

ــ أرجوك ارحل الآن .

كان رماح على وشك الانفجار . لكن قبل أن يصرخ فيها غادر المكان بخطوة عنيفة .

***

بدأ رماح يشعر بأسباب الأزمة التى تمر بها . فعندما عاد أحس أنه لم يشعر بحبها منذ لقائهما الأول .

وقف أمام صنبور المياه ينظف ملابسه . يمحو أثر تلك البقع الحمراء التى تعلقت بثيابه دون أن يدرى . فكان مثل الأعمى الذى فتح عينيه فجـأة . ليدرك أن كل ما روته مريم عن حياتهـا واستسلامهـا لذلك المجهول كان كذبا من نسـج الخيـال .

لم يشعر بالزهو بنفسـه . لكنه أحس أن ارتباطهما بات أبديا . تساءل هل كان يجب أن يحدث ذلك الجنون ليكشف حقيقتها . ليقرر أنه لن يتركها ولابد أن يعود اليها من جديد .

تزاحمت الأحلام والآمال فى رأسه . سعادة خفية لا حدود لها أراد أن يقدمها اليها . لكن عندما وصـل الى البيت الصغير وجده صامتا خاويا لا ينطق بالحياة .

دار حول البيت عدة مرات لا يريد أن يصـدق أنهـا

رحلت • لكن النوافذ كلها مغلقة باحكام • حتى الباب الرئيسى لمح به ذلك القفل الحديدى الكبير •

سأل أحد الصبية وهم يلعبون على مقربة من المكان :

ــ ألا أحد بالبيت ؟ !

ــ لقد رحلت •

ــ تقصد ذهبت الى السوق •

ــ لا ، بل رحلت ، سافرت صباح اليوم •

أخذ يصرخ فى الغلام :

ــ هل أنت واثق مما تقول ؟ !

ــ نعم • لقد رأيتها وهى تضع كل أمتعتها بالسيارة •

لم يكن بوسع رماح أن يقف جامدا فى مكانه • لكن فى تلك الليلة بالذات فعل ما لم يفعله منذ سنوات • سجد على الأرض فى صلاة طويلة • يطلب فيها من الله أن يعيدها اليه •

وسط العاصمة تاه بحثا عنها • بعد أسبوع أو أســبوعين كان يظن أنه ســوف يراها من جديد • بحث رماح فى أماكن كثيرة • لكن بعد الأســبوع الثالث بدأ يستعين برفاقه الذين تحركوا بأسلوب منظم فى عملية بحث واسعة النطاق • فى أول

الأمر ســألوا بعض المكاتب التى كان يمكن أن تتردد عليهــا بحثا عن عمل • لكن بدون فائدة •

أخذ رماح يجوب الشوارع والأحياء ، يتأمل وجوه النساء من حوله • يلتفت فجأة لمن تشبهها • لكن سريعا ما كان يعتريه اليأس • حتى الأماكن المشبوهة لم يخجل من التردد عليهــا والسؤال فيها •

مرت شــهور وازداد الأمر ســـواء بعد أن ضاقت أسرته وعشيرته من تلك الحالة التى اعترته أخيرا • تساءل الجميع عن المرأة التى من أجلها باع كل شيء •

فكر رماح فى مغادرة البلاد كمحاولة منه للهرب من شقائه• ومن شدة يأســه كف عن البحث عن مريم • أما رفاقــه فلم يفقدوا الأمل • بعد أن استبدت به الحيرة أخذ يقول : « ماذا كانت تريد منى ؟ تسلمنى نفسها هكذا •• ثم تدفعنى بعيدا عنها •• كما لو كنت لا أعنى شيئا بالنسبة اليها » !

أحس أنها كانت تسعى لتدميره • تدمير كل ما كان يتمناه ويرجوه منها • أرادت أن توصله لمــا هو عليه الآن • لكنــه لم يكن يريد أن يصـــدق تلك الهواجس • فبعيـــدا عن كل ما اختلقت من قصص ، خداعها له • كان يشعر أنها تحمل من البراءة والطهر ما يكفى لكى يصدقها •

بعد أن واتته فكرة مراجعة أسماء الموتى فى مكتب الصحة.
لم يعثر على أى دليل جديد • وبعد أسبوع آخر كان قد قرر الابتعـــاد •

أخذ يتنقل بين البلاد • وفى كل مرة يبقى فى بلدة عدة أيام يبدأ فى الشعور بالملل • مع ذلك لم يعد يستطيع أن يتخلى عن كثرة التنقـــل من مكان لآخر • كان رمـــاح يســـافر بمفرده بلا رفاق • وعلى الرغم من احساسه بالحزن واليـــأس الا أنه شعر كأنه تخلص من كل قيود عصره ، أسرته ، بلدته • أحس أن هذا التحرر له علاقة بمريم • انه المنفى الذى يتقاسمه معها • وأحيانا أخرى كان يشعر أنه بدل سجنا بسجن آخر •

كانت رحلته الأخيرة التى استغرقت عشرين شهرا كلهـــا فى بلاد ساحلية • اختار البحر • خصيصا لعل أمواجه تأتى له بالجديد • وعندما يستبد به الحنين لمريم كان ينشر اعلانا فى الصحف لعله يأتيه بمعلومات جديدة •

فى كثير من الأحيان كان يتخيل أنها بجانبه • بالقرب منه • لكن لم يمنعه هـــذا من الحياة بأسلوب ساخر • لم يعد يؤمن بالحب • فكان يلقى بنفسه فى براثن المتعة الزائفة • كان يفعل هذا بصمت ، كأنه يأكل أو يشرب • مسألة ضرورية • حاجة من الحاجات •

بعد سنوات بينما هو عائد لأحد الفنادق وجد برقية عاجلة فى انتظاره تقول : « لقد وجدتها .. ولدى عنوانها » .

خرج الى الشارع دون أن يرى شيئا من حوله . لفته ضوضاء الناس . لكن عينيه امتلأتا بالدموع . توقف قليلا ليشعل سيجاره . بعد أن أخذ نفسا عميقا عاد الى الفندق ليسافر فى اليوم التالى .

عرف تفاصيل البرقية التى أتت عن طريق البريد . لكن لا أحد يعرف من الذى أرسلها . فى هذه اللحظة تملكته مشاعر الخوف . خاف أن يجدها قد تزوجت .

قبل أن يتوجه الى البيت الذى تقيم فيه مريم . كان قد جمع بعض التحريات المهمة التى أفادت أنها تعمل مدرسة للرسم .

غابت الابتسامة من على وجه رماح وهو يقترب من ذلك البيت الكبير . لم يكن يشعر أين هو وماذا يفعل . وقف بلا حراك . أخذ يقول لنفسه « لم أعبر الأطلنطى الواسع لأبقى هكذا جامدا مثل الصنم » . ما زالت ذكرياته تطارده ولكن لابد أن يجتاز ذلك الباب الحديدى الكبير . بعد خطوات داخل الحديقة كان أمام باب البيت الخشبى . دق مرتين . ففتحت له

خادمة لمح من خلفهـا لوحات زيتية تنتشر فى كل مكان • بدا البيت كأنه معرض للرسم • قال :

ـ هل مريم تقيم هنا ؟

ـ من أقول لها ؟ !

ـ أخبريهـا أننى آت من رحـلة طويـلة وأريـد أن أتحدث اليها •

تبين رماح أن المرأة لم تكن خادمة على الرغم أنها كانت ترتدى مريلة بيضاء من الدانتيل •

التفتت الى الوراء تحدث رجلا جاء مقبلا :

ـ هذا السيد يريد أن يرى مريم •

كان الرجل بشعره الأبيض المتناثر يحمل قلما فى يده • تقدم عدة خطوات ناحية رماح الذى قال :

ـ انها مسألة شخصية •

تفحصه الرجل قليلا ثم سأل المرأة :

ـ أين هى ؟

ـ انها فى درس مع الأولاد •

ـ قودى السيد الى أعلى •

صعد رماح السلم الخشبى ببطء • درجة ، درجة ، وهو يتأمل اللوحات المنتشرة حتى أعلى المكان • كانت هذه اللوحات كافية ليعرف الى أى مدرسة تنتمى • فصاحب هذا البيت اما فنان معروف أو رجل ثرى يهوى جمع اللوحات • قبل أن يصل الى آخر السلم سأل المرأة :

ـ هل مريم تعمل مدرسة هنا ؟

التفتت اليه وقالت :

ـ لم تعد كذلك •••

ثم تقدمت المرأة ناحية أحد الأبواب وقالت له :

ـ يمكن أن تنتظر هنا قليلا •

كانت قاعة واسعة • احتلت النافذة معظم الحائط • لمح من بعيد امرأة شديدة الأناقة • ترتدى بلوزة من الحرير المقلم المحلى بالدانتيل • الجونلة واسعة بحزام أحمر يحدد نحافة الخصر • حول شعرها الذى انساب حتى أسفل الظهر شريط أحمر • كانت المرأة تبدو أصغر سنا من مريم ، فساوره الشك •

مرت لحظات الصمت • ثم جاءه صوت مريم يقول :

ـ ما الذى جاء بك يا سيد رماح ؟

قال لنفسه « اذن لم تكن هى التى بعثت لى بالبرقية » •

أسرع يقول :

ــ تلقيت برقيــة بها عنوانك • فعرفت أنك تقيمين فى هذا البيت •

نظرت الى الأرض فأخذ يقول :

ــ لم أترك مكانا فى المدينة لم أبحث فيه عنك • اعلانات الصحف كانت شبه يومية • لم أكن أريد أن أفقد الأمل •

بالرغم من المسافة القصيرة التى كانت تفصل بينهما الا أنهما كانا ينظران الى الأرض • ينظران الى تلك السجادة الفخمة التى تغطى المكان •

حاول رماح أن يحتفظ بصوته العادى وهو يقول :

ــ أرى أنك •••

كان يريد أن يقول أنها تغيرت ، لكن خانته الكلمات • فأسرعت هى بالقول :

ــ اننى على ما يرام ولا أشكو من شىء •

ــ هــذا الســيد القابع خلف الباب لابد أنه •• أليس كذلك ؟ !

بابساءة بسيطة من رأســها وافقته على المعنى الذى كان يقصــده •

ـ هذا البيت .. أليس بيته ؟

تنبهت لنبرة الاتهام فى صوته . التفتت اليه ثم صعدت عدة درجات داخل القاعة وقالت له :

ـ تعال من فضـــلك .

صعد رماح السلم خلفها . ثم دخلا قاعة أخرى فى اتجاه الجنوب . قاعة دائرية تطل على الحديقة الواسعة . هذه الغرفة هى مرسم مريم الجديد . على مائدة واســعة تناثرت الأوراق والألوان . لوحات زيتية استندت الى الجدار .

اتجهت الى النافذة وأعطته ظهرها . أخذت تتأمل الأشجار وهى تقول :

ـ انتى سكرتيرته ، أى أعمل كمساعدة له .

ـ وهل تعملين أيضا موديلا له ؟ !

ـ أحيانا .

ـ أرى هــذا جيدا .

نطق بتلك الكلمات وهو يشير الى احدى اللوحات التى تشبههــا .

ـ هل تقيمين هنا منذ تركت منزل والدك ؟

ـ أقيم فى هذا البيت منذ عام فقط •

أخذ يتأمل شـعرها الذى انسـاب بهدوء • لاحظ أنها ازدادت نحافة • كل شىء حوله يبعده عنها • صوت الأبواب التى تفتح وتغلق • صـوت الذين يتحدثون عن بعد • بات الصمت غير محتمل بينهما •

جاء لينتشلها من نفسها ، ليقدم لها يد المسـاعدة • لكنه وجد أنها ليست فى حاجة اليه • لا قيود ، لا بكاء ، لا عويل ولا أيدى ممدودة تتوسـل اليه وفى حاجة للمساعدة •

أحس بالحرج فسألها :

ـ هل يعرف أنك لست متزوجة ؟

ـ يظن الجميع أننى أرملة •

ـ هل توفيت زوجتـه ؟

ـ نعم •• لكنها ما زالت تعيش داخل قلبه •

ـ لم يتزوج مرة أخرى ؟

ـ انه يعيش مع أخيه فى هذا البيت •

بصوت هادىء بدأ رماح يحكى لها ما حدث له طيلة هذه السنوات • لكن دون أن يحدثها عن ليـالى الوحدة والألم ، الشوق ، والذكرى أو الدموع •

تمنى أن تلتفت اليه . لكنها كانت تنظر لتلك البقعة الخضراء أمامها . تقدم ناحيتها وسمعته يقول :

ـ هل كل ما قلت لا يعنى شيئا بالنسبة اليك ؟

ـ انه يعنى الكثير الى الحد أننى لا أستطيع أن ...

قال بصوت هادىء :

ـ ألا يمكن أن تكملى كلامك ؟

ـ لقد ضاعت منى الكلمات .

ابتعدت كما لو كانت تتحاشى النظر اليه عن قرب . وقالت :

ـ لا أعرف ماذا أقول لك !

جاءت الكلمات على لسانها بلا طعم ، بلا احساس . فقال لها :

ـ قلت لى يوما انك تحبيننى . والدليل أنك منحتنى أعظم ما يمكن أن تعطيه امرأة تحب .

ـ لا أنكر هذا .

نظر اليها رماح بأسى وحزن . الشىء الذى جعلها تنظر مرة أخرى الى الأرض . عندما خيم الصمت ، اتجه الى النافذة وهو يقول :

ـ لكنك وجدت مشاعر جديدة .

ـ كنت أظن أننى لن أراك أبدا .

ـ لم تجيبى على سؤالى .

ـ لقد حرمت على نفسى كل شىء .

ـ هذه ليست اجابة .

ـ لست عشيقته . لو عرفت مأساة حياته ، ما دار بخلدك ما يدور .

ازداد وجهه احمرارا . فسكت وبدا شارد الذهن . وخيم الصمت بينهما مرة أخرى .

أكملت :

ـ حقا أننى تعرفت على مشاعر جديدة . لكنها ليست نفس الأحاسيس التى تقصدها أنت .

قـال بسرعة :

ـ كيف أفسر اذن هذه اللامبالاة ؟ !

لم تجب . فأكمل :

ـ لذا تصـورت أن هـؤلاء الأصـدقاء أهم منى .

وأضـاف :

ـ انك تدفعيننى للكلام بهذا الأسلوب •

آثرت الصمت • فالتفت اليها وعلى وجهه ابتسامة مريرة :

ـ أرى كل شىء الآن بوضوح ، بعد أن أصبحت كريها فى نظرك •

بعد أن أتى بكل ما عنده • ترددت قليلا قبل أن تقول :

ـ لم أكن أتصور أن تصل الأمور بيننا الى هذه الدرجة• لقد وثقت بك • فألقيت بنفسى بين ذراعيك ، وأنا أعرف أنه من الصعب عليك أن تكون لى • خاصة بعد كل ما حكيت لك عن الماضى •

توقفت قليلا عن الكلام • لكنه كان ينتظر أن تكمل حديثها :

ـ رأيت فنانين كبارا يحطمون أعمالهم التى تبدو رائعة فى نظر الآخرين • أعرف أن الفنان لا يمكن أن يكون فنانا الا اذا حكم هو على نفسه أولا • هذه هى الحقيقة • فكنت على حق عندما حطمت تلك المشاعر التى بدأت تنمو بيننا • فى البداية كانت الخديعة وأنت تعرف الآن أننى كذبت عليك •

قال بسرعة :

ـ لم يكن هـذا خطئى ••

ـ أعـرف •

ثم أكملت :

ـ لقد خلطت بين المشاعر الطبيعية والمزيفة ، بين الطهر والفسـق •

أحس رماح لأول مرة أنه يتحـدث الى ند له • فشـعر بالفراغ يلفه من كل جانب • قال :

ـ ألا يمكن أن نكتفى بالأشياء الطبيعية والطهر ؟

ـ لا أعتقد هـذا •

عندما نطقت بهذه الكلمات تجنبت النظر اليه •

ـ عندما عرفت عنوانك ومكانك كنت على بعد أميـال منك • لكننى مع ذلك كنت أحلم بهذا اللقاء • وهأنت أمامى الآن تحدثيننى عن الطبيعة والفن •

ـ يجب أن نطبق الطبيعة والفن على أسلوب حياتنا •

ـ هل يعنى هـذا أنك لم تحملى لى الحب ؟

ـ لم أقل هـذا •

أعطته ظهرها فاقترب منها وقال :

ــ لابد أنك قلت لنفسك « لقد استخدمته • كان مجرد وسيلة بالنسبة لى ، شيء يمكن تحطيمه فى أى وقت • لابد أنه التقى بنساء أخريات أفضل منى • لم أكن بالنسبة اليه الا مجرد شبح أو ظلال » •

كانت طيلة الوقت تنظر الى الأرض • فأكمل :

ــ « لقد منحته كل ما أملك » • الآن يا مريم أريد أن أعرف شيئا واحدا •

وبدأ صوته يتحشرج • توشك الدموع أن تتغلب عليه • بيد مرتعشة تحسس كتفها ثم قال :

ــ أيوجد فى حياتك انسان آخر ؟

ثم التفت الى الباب • التفت مرة أخرى وقال :

ــ أرجوك ، أريد أن أقول •••

ــ لقد قلت كل شيء • هذا الآخر ليس كما تظن •

عندما تغيرت نبرات صوتها • توقف عن السير • التفت وأخذ ينظر اليها فى حيرة من جديد • أحس بتلك الرعشة التى تملكتها • لقد عثر على مريم • نعم مريم التى عرفها • بقى جامدا ينظر الى الأرض • قالت :

ـ يوجد انسان آخر • فنان التقيت به ويريد أن يتزوجنى • ولو كان لى الخيار لاخترتك أنت صدقنى •

تقدمت ناحيته بينما كان مازال ينظر الى الأرض • فأكملت :

ـ ان غريمك وغريمه الوحيد هو أنا نفسى • لا أريد أن أتزوج لأننى •• أولا أعانى الوحدة •• وأعتادها •• وكنت أظن فى البداية اننى أكره هذه الوحدة • لكننى اليوم أعيش فى عزلة أصبحت أستعذبها • عزلة أصبحت غالية ، باهظة الثمن • لا أريد أن أتقاسم الحياة مع أحد • أريد أن أكون ما أنا عليه الآن • ليس كما يريد زوج مهما كانت طيبة قلبه واخلاصه •

ـ وما هو السبب الآخر ؟ !

ـ السبب الآخر هو حياتى الآن • حقيقة أننى لم أكن أطمع فى حياة سعيدة • لكن هأنا أجد نفسى سعيدة • أشعر لأول مرة بالتوافق بين عملى ونفسى • فالمحيط الذى أعيش فيه الآن كله من المثقفين • أعرف أن لهؤلاء الناس عيوبهم وأخطاءهم •

التفتت اليه وأضافت :

ـ رماح ، أريد أن أعيش ما قدر لى • أعرف أننى لست

صاحبة موهبـــة عظيمة ،الا أن الفرص ما زالت أمامى • وأنــا فقط أستطيع أن أحدد هذا •

ثم نظرت اليه لتكون فى مواجهته تماما وقالت :

ــ لك أن تظن بى ما تشاء لكننى أبغى هذه الحيـــاة التى أعيشها الآن •

نظرت الى الأرض وهى تقول :

ــ كل ما أرجوه منك الآن ، أن تحـــاول أن تدرك جيدا ما أعنى •

أحس رماح أن كل ما قالته هو الجنون بعينه • لكنـــه بالطبع جنون مختلف • فالتى تتحدث اليه الآن شخصية مختلفة، انسانة جديدة واثقة من نفسها • حتى أســـلوبها فى الحـــديث أصبح أكثر رقيا • ذوقها فى ملابسها اختلف وأصبح أكثر عناية وأناقة • لم يكن يريد الاعتراف بكل هـــذا • وقف وســـط القاعة وقال :

ــ لكن ، كيف يمكن لك نكران هـــذه الأهداف التى خلقت المرأة من أجلها ؟ كيف يمـــكن أن تعيشى ضـــد قانون الطبيعة ؟

لكنه ذهب الى أبعد من ذلك فأكد قائلا :

ــ أنا أيضا تغيرت • تعلمت كيف أتعرف على نفسى أكثر • كيف أرى عيوبى عن قرب • لن أحرمك من عالمك الجديد ، ومن السعادة التى يمنحها لك ذلك العــالم • بل كل ما أريد أن أقدمه اليك هو المزيد من السعادة •

اتجهت الى النافذة • تبعها بعدة خطوات وهو لا يفارقها بعينيه • فقالت :

ــ أنت لم تفهمنى • ولا تستطيع ذلك •

ــ لقد قلت لى هذا من قبل •

ــ أريد أن أقول أيضا اننى لا أفهم نفسى • ولا أجد سببا لهذا الضياع الآن • لكن على ما يبدو أن سعادتى هى أن أبدو هكذا لغزا •

قال : والآن يمكن أن تطلبى منى الرحيل •

أسرعت بالقول :

ــ أنت مخطىء •

نطقت بهذه الكلمات وهى ما تزال محتفظة بهدوئها • لكنه أسند رأســه بيده وأضاف :

ــ أنت لم تغرسى الخنجر فقط فى قلبى ، لكنك تلذذت بتحريكه فى جروحى لتزيدى من آلامى •

وقفت أمامه وجها لوجه كأنهـا مجرم فزع ينتظر العقاب لكنه يتحدى • فقال :

ـ سـيأتى يوما تدفعين فيه ثمـن هـذا الألم الذى سببته لى •

تشابكت المشاعر والعبارات التى كان يمكن أن يصبح لها معان جسيمة تفزع لها • لكن لم يعنها كل هـذا بقدر ما كانت تهمها المشاعر العميقة التى دفعته لأن يقول ويقول • نظرت مريم اليه طويلا ولمحت فى عينيه انعكاس تلك اللعنة التى يريد أن يصبها عليهـا •

نظرت الى الأرض • لكن بعد أن جمع كل شجاعته وغضبه، اتجه بسرعة الى الباب •

جرت خلفه فالتفت اليها •

بقيت للحظات تائهة فى مكانها ضائعة • لكن قبل أن يكمل طريقه سبقته الى الباب ، منعته من الخروج وقالت :

ـ لا يمكن أن أتركك تخرج وأنت تحمل لى مثل هذه المشـاعر •

تنفست بصعوبة فأخذ صـدرها يعلو ويهبط • وتعلقت عيناها بعينيه كما لو أنها تعتمد عليهما لتمنعاه من الخروج • اشتعلت عيناها من الغضب وبصعوبة حـاول السـيطرة على

أعصابه . حاول أن يهدأ تلك النار التى اشتعلت بداخله . لكن دون أن يتمالك نفسه وبحركه عنيفة دفعها جانبا . فوقعت على الأرض وارتطم رأسها بالمنضدة الصغيرة التى كانت على مقربة من الباب .

تحسست شفتيهـا فرأت هـذا اللون الأحمر الذى علق بأصابعها . قبل أن تحاول النهوض كان رماح الى جانبها يقبلها بفزع محاولا أن يمحو تلك الآثار العنيفة .

فقال بخجل :

ـ لقد جن جنونى . انظرى ما فعلت بى .

لم يستطع رماح أن يمنع نفسه من الابتسامة فقال :

ـ أن ما تقولين غريب حقا . ترفضين عرضـا لمجرد أنك تريدين فهم نفسـك .

ـ أرفض عرضك كما أرفض عرض ذلك الانسان الآخر . أنت لا تفهم . فالذى أقوله ليس غريبا .

وأعطته ظهرها مرة أخرى . لكن مع ذلك كان رماح مازال يحس ببصيص من الأمل . فقال :

ـ احتفظى بغموضك لنفسك . سيظل هـذا الغموض شيئا مقدسا بالنسبة لى .

ـــ لا أخاف منك . لكننى أخاف من الحب الذى تحمله لى . أعرف أن المشاعر لا تظل كما هى أبد الدهر .

تردد قليلا ثم اقترب منها أكثر فأكثر وقال بصوت حان :

ـــ ألم تفكرى فى طيلة هذه المدة ؟

رمته بنظرة جامـــدة ثم نظرت الى الأفق البعيـــد وهى تقول :

ـــ فكرت فيك فى البداية كثيرا . كثيرا جدا . لكن بعد عدة أشهر عندما بدأت أقرأ تلك الاعلانات فى الصحف .

ـــ عندئذ ؟

ابتعدت بهـــدوء بينما ظلت نظراته معلقـــة بها . كانت المسألة بالنسبة اليها معركة كبيرة . ومثل المعـــارك المســـألة لا تتعلق بالحب، ولكن بالغزو ، بالاحتلال والمكسب . لم تكن تكره الرجل بداخله . لكن هـــذه المناورات هى استراتيجية حمايتها ودفاعها عن نفسها . عن تلك الجوهرة الكامنة بداخلها. كانت تعرف أنها تتألم من أعماقها . تتألم أكثر من أى وقت مضى . وهذا ما كانت تخشى أن يكتشفه رماح .

ساد بينهما الصمت . ثم قال :

ـ انك لم تهدمى حياتى فحسب ، لكنك شعرت بالسعادة والاستمتاع وأنت تهدمينها .

ـ كنت أعرف أن لقاءنا لن يسبب لنا الا الضيق .

ـ أنت تكذبين . انك سعيدة لأننى أتألم . ألم ترسلى لى عنوانك بنفسك ؟ !

نظر اليها بسرعة ، فبدا كأنه يضع على وجهه قناعا من الثلج . قال :

ـ أنت حقا ممثلة بارعة . أرى الآن كيف أتيت بى لأتلقى المزيد من الطعنات . هأنا الضحية الجديدة أمامك . تلقين عليها كراهيتك لكل جنسى من الرجال . سكت قليلا ثم أمسكت برأسها . فلم تعد الكلمات تنفع الآن وعيناه ، ما زالتا تحملان تلك المعانى التى تؤكد أنه يحبها . فوراء غضبه تكمن تلك الرغبة الملحة فى البكاء .

من جديد ، أحس بيديها تلمسان ذراعيه . فبقى جامدا يلعن ضعفه واستسلامه . أحس أن تلك اليدين تبوحان له بالكثير من الندم والاعتذار . تعلقت به يداها . عندما نظر اليها لمح على شفتيها ابتسامة خفيفة . نفس الابتسامة الوديعة التى رآها من قبل وهما فى الكوخ الصغير .

سأل نفسه اذا كانت تسخر منه من جديد ؟ ! لكنه أحس أن تلك اليدين تتشبثان به ، تؤكدان أن هناك طريقا واحدا فى انتظارهـــا .

عندما أدرك تلك المعانى نظر من جديد الى يديها ، الى عينيها . شيئا فشيئا علت الحمرة وجهه واختفت الابتســامة من عينيه . ضمها اليه بشدة . وقفا جامدين كما لو كانا قد تجردا من كل شيء . فى لحظـــة واحدة انكشفت المشاعر فأصبحا مثل العراة وجها لوجه .

بحث فى عينيها عن نواياها الجديدة . فلم ير الا كائنـــا يريد التضحية بكل ما يملك . كائنـــا يريد أن يترك العنـــان لمشاعره . كائن يريد أن يبيح لنفسه تلك الأحاسيس الأنثوية المتواضعة . كائن يريد الاحتفاظ بكل الطهر .

شـــعرت مريم لأول مرة أنها لن تعطيه كل شيء الا بعد احساسها أنه قد امتلكها حقا . بذلك يمكن لها أن تمتلكه هى الأخرى . فحاجتها للامتلاك رغبة ملحة بداخلها . فقد ناورته بما يكفى منـــذ البداية وها هى بتكوينهـــا مستعدة لمناورتـــه وحتى النهاية .

نوفمبر ١٩٩١

□ عاصمة بلا رتوش



غريبــة .. غريبــة يا بلدى !

قررت أخيرا الكتابة عن هذه العاصمة ..

قررت أخيرا أن أعيش الجحيم مرتين ..

مرة عشته يوم ولدت .. ومرة أتنفســه

وأنا أســطر هــذه الكلمات ..

لم يعد فى امكانى الاستمرار فى الضحك على نفسى . هذا القبح الذى يلفنى من كل جـانب تحول الى غمامة سـوداء أصبحت الحائل الذى يبعدنى عن أدنى رغبة فى الاستمتاع بأى احساس جميل قد أصادفه فى حياتى . لا أعرف ما الذى يدعونى للبقاء فى تلك العاصمة . تغنوا بها مدينة جميلة ، لكن الواقع يؤكد أنها لم تعد أجمل بلاد الدنيا . حقيقة أن حضارتها وتاريخها عريق شامخ ، الا أن هـذا لم يعد يكفى وسـط عالم خرب طحنته المـادة والمنافع فلم يعد لنا الحق فى الاستمرار فى التشدق بهذه الحضارة أبد الدهر . المعابد ، الكنائس ، الجوامع ، الآثار القديمة ، النهر الهادر . حضـارة شامخة لكن فى صمت وظلمة القبور . حتى طين الأرض الذى كان دائما منبعا للخير ، أصبح لا يفرز الا الديدان العطشى التى لا ترتوى الا على دماء الآخرين . سموم الجهل والتخلف جعلت هـذا الطين يتمرد ويمتنع عن العطاء .

كان لابد أن تمر سنوات العمر حتى أكتشف أننا قوم نعود دائما الى الوراء ، تتشبث بالماضى ، تتغنى به ونقرع له الطبول • وعندما تسكرنا الألحان نغط فى سبات عميق •

الانسانية كلها تمر فى ركابها الحافل ، وأنا أمر عبر هذا الشارع الطويل الممتد فى طريق عودتى الى البيت • فى وضح النهار كنت أقود سيارتى وسط الموكب الصاخب المجنون الذى أصبح مثل تشريفة التعذيب فى أحد السجون السياسية • لمحت على أحد أرصفة مستشفى الأمراض النفسية والعصبية كتلة أنثوية من اللحم البشرى العارى الملطخ بالتراب الرمادى الأسود • تحت ظلال شجرة صغيرة يانعة أخذ الكائن الآدمى يصرخ محاولا اخفاء عورته بكلتا يديه •

بعيدا عن أعين الوحوش النهمة لم أتمالك نفسى وكأن قوى خفية تملكتنى فداست قدمى على فرامل السيارة لأجد نفسى أمام باب المصحة حيث وقف جنود الحراسة ينظرون الى جسد المرأة ، يتفرجون كأنهم يتلهون أمام عرض تليفزيونى سخيف • بتوقفى المفاجىء واعتراضى الواضح وطلبى للنجدة والمساعدة أصبحت فى أعين الناس كأننى حيوان غريب جاء من كوكب لم يسمعوا عنه من قبل •

تفاصيل القصة لم تعد لها أهمية • فهذه الواقعة التى

أهتز لها بدنى مجرد فقاعة فى محيط من الجهل والفقر والتخلف. هذا العمى أصبح يحيط بالناس ، يلفهم من كل جانب . يدرجهم بين كائنات لم أنجح فى ايجـاد فصيلة يمكن أن تنتمى لها .

ماذا أقول ؟ .. لأول مرة أشعر بالكلمات والمعانى الحائرة تتعثر بين شفتى . تلف وتدور ، تبحث لنفسها عن صـورة ربما أجد فيها الخـلاص . لو عدت للوراء ، ربما استطعت أن أفهم وأن أدرك حقيقة ما حدث وما يحدث لتلك العاصـمة التى كانت مقدسة فى يوم من الأيام .

أذكر عندما كنت فى السابعة من العمر أى فى عـام ١٩٥٢ ، هذا الصوت الذى انطلق من المذياع معلنا قيام ثورة وانهـاء عصر . كنت طفلة صغيرة ، فلم أدرك معنى ما يحدث . لكننى مازلت أذكر ردود فعل من كانوا أكبر منى سنا ، فمنهم من فرح بسقوط الملك ورأى أنه نهاية عصر الفسـاد . ومنهم من لم يتوقع خيرا من حركة الضباط . لبدء حقبة جديدة من اللعبـة السياسية الكبرى .

وتعود بى ذاكرتى لبيتنا الذى ولدنا فيه ، وعشـنا تحت سقفه سنوات الطفولة ، الصبا والمراهقة . انه بيت العائلة الذى كان مكونا من ثلاثة طوابق ، الطابق الأول أقامت به جـدتى لأمى وخالان شابان . الطـابق الثانى أقام فيه خال والدتى مع

زوجته وأولاده وأمه . أما الطـابق الثالث فكان مخصصا لنا ، أبى وأمى ونحن الاخوة الخمسة .

المدرسة التى التحقت بها كانت الليسيه الفرنسية التابعة للسفارة والقنصليةالفرنسية أى للحكومة الفرنسية مباشرة . أذكر أن طاقم التـدريس بكامل هيئتـه كان من الفرنسـيين المسيحيين أو اليهود ، وبعض المسـلمين القلة لتدريس اللغـة العربية . الى جانب الدراسة كنا نتعلم مختلف شئون الحياة . المعاملة الحسنة . الذوق ، النظافة ، المظهر ، ما يجب أن تكون عليه الأخلاق الحميدة ، حسن المعاملة وخاصـة عدم الكذب . كنا نقضى فى هذه المدرسـة يوما بأكمله ، أى كانت الدراسـة لفترتين يفصل بينهما وقت الغداء . كان هـذا يعنى أننا نبقى فى المدرسة وسط مدرسينا أكثر مما نبقى فى البيت وسط الأهل. فكانت المدرسـة تعنى بالنسبة الينا أسلوب وفن حيـاة بأكمله غرس فينا ونحن صغار دون أن نشعر ليبقى مثل الشذى حتى اليوم . فأسـماء المدرسين وعبـاراتهم ما زالت ترن فى أذنى حية نابضة .

فأنا أذكر مثلا أننى لم أسمع يوما عن معلم أو معلمة ضربت تلميذا حتى كسرت له ذراعه أو فقأت له عينه . ذلك الذى يحدث

ونسمع عنه فى يومنا هـذا فى مدارس الحكومة أو حتى المدارس التى يقال انها خاصـة • فمن يجلس على رأس هـذه المدارس موظف حـكومى كبير تابع لوزارة التعليم ، الا أنه فى أغـلب الأوقات لا دراية له بشئون التربية والتعليم •

المقارنة أصبحت فرضا علينا فى تلك الحياة التى نحياها ونحن على أبواب القرن العشرين • ابتغاء للحق والحقيقة لقد تغنت حركة يوليـة بمفاسـد بشـوات مصر • فهل يقول لى أحد أعضـاء هـذه الحركة المسلحـة كم عدد الشخصـيات المسئولة التى أدينت بسبب الفساد على مدى خمسين عاما من سياسة وضعت نصب أعيننا شعارا رنانا هو الحرية ، العدالة والمساواة ؟

البيئة الاجتماعية التى نشأت فيهـا كانت تعتبر فى ذلك الوقت الطبقة فوق المتوسـطة • أى كما كان يقال وما لم نعد نسمعه اليوم •• هو « الأصـل الطيب • » مع سنوات حركة الضباط نسى النـاس المعنى الحقيقى لهذه الكلمة وهى كلمـة « الأصل » ، فاختلطت المعانى وظنوا أن الأصـل الطيب هو الثراء هو جمع المـال • لكننا تعلمنا من كتب التاريخ أن العرب كانوا أول من تفـاخروا بالأنسـاب ، والأنسـاب كانت تعنى الشجاعة ، الاحترام ، النزاهة ، الصـدق والحق • الأصـل الطيب معناه الأخلاق الطيبة وليس الثراء والغنى •

المحيط الذى عشت فيه كان من الأهل ، الجيران والأصدقاء اما من المسلمين أو من المسيحيين أو اليهود . عائلات محترمة توفرت لديها كل مقومات الأخلاق، لا لصوصية ولا نفاق. وسط بيت العائلة الكبير عشت أحلى سنوات العمر وأكثرها وهما بأن المستقبل سوف يكون دائما أفضل . عشت فى منزل يسهر على راحتنا فيه مجموعة من الخدم كنا مسئولين عنهم وعن أسرهم مسئولية كاملة . فأنا مازلت أذكر جدتى وهى تنظف الخادمات الصغيرات بيديها داخل الحمام . وكان يتم تعليمهم وعلاجهم . حتى الترفيه كان لهم نصيب فيه . فأذكر مثلا أنه كان لدينا خادم نوبى أسمر يعشق صوت فريد الأطرش . عندما كنت طفلة كنت أراه واقفا أمام حوض المطبخ يبكى وهو ينظف الأوانى وأمامه صورة المطرب الكبير معلقة على الحائط . فما كان من أبى الا أن قدم له تذكرة لحضور حفل غنائى كبير لفريد الأطرش بدار الأوبرا . لمحة بسيطة عن معاملة الأسياد للخدم التى تحدثت عنها حركة الضباط والتى حرصت أجهزة الاعلام على اظهارها فيما بعد للاساءة لعصر كان مليئا بالأخلاق والقيم . ادعاءات حركة تعمدت تشويه مجتمع بأكمله دون أن تفرق بين ما هو صدق وما هو كذب .

***

لم يكن غريبا أن أكتب عنك فى هذه البقعة من الأرض الطاهرة . المنطقة التى شهدت مأساتى . السماء التى ابتلعتك ثم الأرض وحبات الرمال الذهبية التى احتوتك .

سألت عنك ذرات الكون . حتى هذا البحر الواسع لم يعد يطفىء نيرانى الملتهبة . الكل فى صمت . غريب أنت أيها الانسان وما فائدة الاصرار وقد بعدت الأيام وطالت السنون وغاب من أصبح فى خلود .

أفقت من أحلامى وخيالاتى وأنا أسير هنا . المسافة غدت طويلة بعيدة وقد خارت قواى فلم أعد أقوى على تحمل سنوات العمر وكيف يبعد الانسان الذكرى عن نفسه . القصص ، الحكايات ، الطفولة ، الصبا ، الشباب ، ثم الموت . لماذا ؟ فعندما تتغير الأشياء وتتبدل تولد الحياة من الموت ويولد الموت من الحياة . لكن المذاق لم يعد كما كان بعد أن عرف القلب قطرات الدم وبلات الألم وتأوهات النفس والروح .

أما أنت أخى الذى يصغرنى بثلاث سنوات . أحسست مسبقا بكل ما كان ينتظرك من غدر وخيانة . قصص مخاوفك لم تخفها عنى . وكانت نصيحتى التراجع فأبت نفسك فى كبرياء. تلك النفس التى عشقت الصعود الى السماء واختراق السحب بالطائرة العملاقة . اقتربت من القوى العظمى فكيف لك أن

تعود الى الأرض ، الى الطين . كنت تنظر الى الناس وتقول لى: « اننى أشعر بالشفقة عليهم .. انهم يسيرون مثل العميان » . فآثرت الصمت متوهمة أننى تركت لك الحياة .

حملت أوراق أشعارى الحزينة بين يدى . ضممت الى صدرى تلك القصيدة الوحيدة التى أسميتها « الغـائب » . عدة أبيات بسيطة ، قطرات دماء نزفت من قلب عرف الجرح رغما عنه . لأول مرة أضع قدمى فى دار صحفية . كان المبنى مكونا من عدة أدوار منها المطبعة ثم دورين آخرين . كنت على موعد مع رئيس التحرير وبناء على توصية كما هو معتاد وكما تسير الأمور فى هـذه العاصمة . حقيقة أننى لم أكن من النوع الذى يعتمد على الآخرين أو على استغلال اسم عائلته ، الا أننى كنت أريد أن يأخذ عملى مأخذا جادا .. أردت أن أدخل هـذا المجال من أنظف الأبواب .

جلست فى هدوء بالقرب من مكتب السكرتيرة أنتظر دورى فى مقابلة رئيس التحرير . غرفة صغيرة ضيقة وضعت بها بعض المقاعد البسيطة . غرفة لا تخلو من الزائرين اما من الصحفيين الذين يعملون بالمجلة أو من الضيوف والأصـدقاء أما أنـا فلم أستطع أن أفرق بين الوجوه . فلم أكن أعرف أحـدا من أصحاب الأقلام التى نسمع بها أو نقرأ لها .

كنت قد تخرجت توا فى الجامعة ، لكن بعد أن تعثرت سنتين بالسنة الثالثة اذ مررت بظروف تركت آثارها الدامية على نفسى وقلبى . فقد استشهد أخى الطيار المقاتل فى عام ١٩٦٩ بالغردقة ، أى فى حرب الاستنزاف . نعم هكذا سميت تلك السنوات التى أعقبت النكسة أو هزيمة يونية عام ١٩٦٧ . كلمات وأسماء أضيفت الى قاموس الحروب .

أفقت فجأة على صوت يسألنى بفضول :

ــ والآنسة تعمل معنا فى المجلة ؟

بسرعة ردت السكرتيرة بحدة نيابة عنى ، تماما كما لو كانت تدرك ما يقصده هذا الدخيل :

المدام ضيفة تنتظر مقابلة رئيس التحرير .

ابتلع الرجل لسانه بعد أن قطعت عليه السكرتيرة محاولة تبادل الحديث معى .

لم يكن مكتب رئيس التحرير أنيقا أو فخما . لكن مجرد مكتب كبير ملىء بالأوراق والكتب والضيوف الذين يتحدثون فى نفس واحد .

التفت الى رئيس التحرير الذى ألقى على التحية بأدب جم ، وقدمت له أوراق أشعارى المتواضعة التى قدمها بدوره بعد أن قرأها لأحد الجالسين .

فى طريق عودتى الى البيت لم أهتد لقرار فقد طلب منى رئيس التحرير الاستمرار فى الكتابة . نعم ، لابد أن أقرأ كثيرا، اذا كنت أريد أن أكتب كثيرا . حقيقة أن أشعارى كانت ضعيفة لكنها مليئة بالأحاسيس والمشاعر لذا عرض على رئيس التحرير العمـل بالصحافـة الشىء الذى يتيح لى الاقتراب من عـالم الكلمة . وكان على أن أبدأ التمرين على العمل الصحفى بدون مرتب أو حتى أملا فى تعيين . كان القرار بالنسبة لى سـهلا بسيطا لكنه بدا صعبا على أبى الذى كان يتهم الصحافـة فى ذلك الوقت بالفجور .

لم يعطلنى الزواج عن اتمام دراستى الجامعية ، فلمـاذا يعطلنى اذن عن العمل ؟ كان زوجى صديقا منذ الطفولة لشقيقى الأكبر . أسرته تعرف أسرتى ويقطنون فى فيلا كبيرة تقع فى الشارع الخلفى لمنزلنا . لكن معرفتى الحقيقية به بدأت يوم زفاف أختى الكبرى ، اذ كان من المدعوين . فأخذ يتودد الى بعد أن تغيرت كثيرا فى مرحلة الصبا . بدأت مكالماتنا التليفونية تطول وبدا سهلا عليه اقتحام هـذا القلب الوليد الذى لم يكن مشغولا فى هـذه الفترة الا بحب أفلاطونى صنعته لنفسى من خيوط العنكبوت . انه الحب الأول ، حب مرحلة المراهقة فى هذه الفترة المبكرة من العمر لم أكن أتصـور أننى يمكن أن أتحدث الى شـاب لا أعرفه . بدأ هـذا الوهم عندما كنت فى

الخامسة عشرة من العمر وظل يصاحبنى حتى بلغت الثامنة عشرة.
حب لم يتعدى النظرات ، التهادى على شاطىء البحر من بعيد لبعيد . والنوم كل ليلة على صـوت أم كلثوم . سـهر ، وسـهاد وتنهيد وأمل فى شىء كنت مازلت أجهله . عالم صنعته لنفسى من أحلامى ، أحلام تركت لها العنان الا الهرب فى غفلة من الأهل للقاء شاب لا أعرفه . بقى هـذا الحب الأول للآن مجرد ذكرى غالية . فلماذا كان هـذا الخوف ؟ ولولاه أكان يمكن أن يتغير مجرى حياتى ؟

صرخة أمى التى انطلقت تشـق عبـاب السماء لم تنسها أذناى حتى هذه اللحظة ، صرخة ستظل تلازمنى أبد الدهر حتى ألفظ أنفاسى الأخيرة . فقدان الولد فى حرب اكتشفت خباياها فيما بعد . جيش كل قواده ينعمون بالفسق واللهو . أجسـاد تساقطت وتهاوت من أجل قلة خسيسة . هكذا بدأ الرفض الذى احتل قلبى ومشاعرى تجـاه حركة ١٩٥٢ . شـعارات كاذبة ومبادىء مزيفة حيكت ببراعة ليظل الشعب المطحون يعـانى حتى اليوم . هـذا الغبار الأسود لا يريد أن يزول عن هـذه العاصمة التاريخيـة الأصيلة . هـذا الحزن الذى يخيم على مبانيها كيف له أن يتبدد ؟

فكرت فى الانتحار ، التخلص من ذلك الوجود . الموت كافرة بعد أن كفرت بكل المبادىء من حولى . لكن بعد أن

ضممت طفلتي ذات العامين الى صدري أحسست بالذنب والمسئولية . لابد أن أستمر . وكان الفساد البشع ، فساد سلطة الحكم . صفقات السلاح التي مرت بمقتضى قانون خاص كانت انتهاكا صارخا للدستور . حتى القروض والمعونات المالية لم تسلم من السطو والنهب ، حتى ان بنكين أمريكيين عالميين ضمنا تقريريهما ما يفيد أن ثلث هذه القروض والمعونات أي ما يعادل مليارا ونصف مليار دولار سنويا ينهب ويهرب خارج البلاد . وتابعت مظاهرات الطلبة داخل الجامعة وكاد أن يقبض على مرتين لتواجدي في أماكن التظاهر . اذ كنت في ذلك الوقت طالبة بالدراسات العليا وأتابع عملي كصحفية تحت التمرين . وعندما جاءت الانتفاضة الشعبية الكبرى التي أطلق عليها الحاكم في ذلك الوقت انتفاضة الحرامية كنت قد عينت في احدى المؤسسات الصحفية الكبرى وكنت أول من شهد أنها لم تكن الا انتفاضة شعبية مائة في المائة . أي تعبيرا واضحا عن سخط شعبي كبير . سخط لم يؤخذ في الاعتبار . سخط كان يمكن أن تتجنب آثاره حتى اليوم .

أحسست بالوحدة . وحيدة مثل فرخة ذبيحة . لا يحيط بي الا مجتمع يعيش وسط الظلام . نظرت الى نفسي في المرآة . وجه شاحب ، عينان واسعتان ، وشفتان لا تعبران عن شيء . شعر

شديد السواد وأكتاف نحيفة • خسناء كما يقولون لكن لمن يشترى ؟ وراودنى ذلك الحلم البعيد • أريد الخلاص من حدود حياتى • بلا كلمات ولكن بقوى خفية تنير لى الطريق • حلمت أن قوة غريبة قد تملكتنى فجـأة • قوة تريد أن تقول كل شيء بصوت عال يذهب بعيدا عبر العالم • أريد الخروج بعيدا عن حدود حيـاتى •• عن طريق الكلمـات يمكن لى أن أتوجه ناحية الحقيقة • شـعاع قاس وحى دفعنى الى الأمام • أريد أن أموت الى الأبد ، لو كان الموت سـوف يعطينى لحظـة استمتاع • ؟ أريد أن أعطى قلبى •• وأخرج من نطاق جسدى• خرجت من البيت بحثا عن الالهام ، أتشمم الطريق من حولى مثل حيوان فزع يخشى الخطر • مشيت وكأننى ضحية هـذا القدر • لمـاذا ولدت فى ذلك العصر الخرب ؟ لو كنت حرة لغيرت العالم من حولى !

لقد انتشر الاغتصاب داخل العاصمة وخارجهـا • جريمة تترفع عنها الحيوانات التى تعرف أن الاتصـال هو التفـاهم وهدفه النسل • وبعيدا حتى عن الزواج فان الاتصال بين رجل وأنثى مبعثه التراضى •فأباح علمـاء الشيعـة فى الاسـلام زواج المتعة وعلمـاء السـنة أباحوا الزواج العرفى • وفرض الحصار على المرأة •• انها بخروجها الى العمل كانت مبعثا على

اثارة الرجال . أما ألد أعـداء البشر فهما قوتان أبديتان . السلطة المتمردة على أى قيد انسانى أو خلقى . والقانون الظالم الذى يعبر عن ارادة طاغية متحجرة . وهاتان القوتان تجسدان الفساد البشرى فى صورته الصارخة . فساد مدمر للقيم الانسانية بين الشـعوب . يستحيـل أن نعفى من المسـئولية المثقفين الذين برروا لحركة يوليو ١٩٥٢ البطش والتخريب . وبحكم قوانين الوراثة كانت الخصـائص الشريرة . فكيف يعلم شباب تلك العاصمة أن السبب الأول لمعاناته من قهر ، نهب وارهاب وفساد هو أمريكا . فقد شجعت الولايات المتحدة انقـلاب يوليو العسكرى بقصد طرد انجلترا وفرنسا من العالم العربى . فقد أودعت أمريكا فلسفة الحـكم الشـمولى أساسا للدولة الناصرية. وعينت بسفارتها بالعاصمة خبير الانقلابات العسكرية على أنه مستشار دبلوماسى وكانت مهمته ارشاد نظام الحكم لتبنى ووضـع التنظيمات الكفيلة بالسيطرة الكاملة على كافة مقومات المجتمع والدولة .

***

بحثت لنفسى عن معبد جديد ، عن كهنـة جـدد يرددون ترانيم من نوع آخر . عرفت مسيرة هذا الطريق المظلم الكئيب. ذكرياتى البعيدة تلاشت فوق الرماد . انتقلت من تابوت الى

تابوت مثل الفراعنة القدامى أخذت أرتل أناشــيد الموتى حتى ذبلت الزهور والورود من حولى .

ذلك الرجل الأعمى ينصت لوقع خطواتى . قاومت طويلا احساسى للاقتراب منه . نظرت الى السماء وأخذت أفكر فيه . كان يقضى الساعات الطويلة جالسا فى مكانه يتحدث الى نفسه أحيانا وللآخرين تارة أخرى . من بعيد كنت أبقى الى جانبــه ، أسانده بجنون . لا أعرف ما سر هذه القوة العجيبة التى تربط بيننا . ما سر هــذا الهوى المسكر المعطر . ليس ذنبى أو ذنبه أن يكون كل منا مربوطا بحبله السرى للآخر . انها ارادة تفوق الريح العاتية . عندما أبعد عنه أعود اليه أقرب من ذى قبل . هذه القوة التى تكمن بداخل كل منا تصيبنى بالخوف . انه العذاب ؟ الجحيم ؟ لا أعرف القدر الذى ألقى بى فى طريقه . لا أعرف أى ذنب جنيت لأصير بلا عقل ؟ باعدت به الأيام لكن ليعود مرة أخرى فى طريقى . وسط محيط واســع من الأمواج الهائلة تحسست كلماتى :

ـ رأيت أبى يبكى لأول مرة ؟

أشار الى بالجلوس الى جانبه . لكننى لم أفعل .

فرد قــائلا :

ـ لقد بشرته بالصمود أمام الكارثة !

فأسرعت بالقول :

ـ لكنك اختفيت سريعا من أمامه . تلاشيت وسط الوجود دون أن تفصح له عن المزيد .

تمتم الرجل الأعمى بعبارات غير مفهومة . كان حديثه يبدو أحيانا مجهول اللغة .

فأضفت :

ـ تلك العروق تحمله الى كل مكان من جسدى .. حتى كرات دمى تحولت الى معنى واحد لا ينطق الا به .. أخى .. فكيف لى أن أنسى نفسى ؟ لقد بقى فى قاع قلبى ومشاعرى ذلك الحب الذى لم يبرح كيانى .

توجه الرجل ناحيتى دون أن يتبين ملامح وجهى ثم قال :

ـ أعرفك لقد تملكتك روح فرعون يوم جلست على تلك الربوة العالية وسط الصحراء . فهامت نفسك . اذهبى ولا تبحثى عنى مرة أخرى .

تراجعت عدة خطوات الى الوراء . نعم فقد حدث هذا بالفعل فى سنوات الصبا الأولى . فمازلت أذكر تلك الربوة العالية التى حملتنى بعيدا . بعيدا .. أذكر هيامى .. وصفاء

نفسى •• وخلو روحى من كل الشـــوائب •• أذكر تلك الحالة من السمو الرفيع •

حاول الرجل أن يفتح عينيه جيدا كأنه يريد أن يرانى • وأمام حركة الرياح العاتية ، تحركت الأشجار من حوله • فأخذ يضحك دون أن يقول شيئا كأنه فهم وأدرك كل ما يحدث •

تحت سفح الأهرامات العاتية تكومت وكأننى كتلة رثة من المهمــلات • آثرت ألا أبرح ذلك المكان • نفس المكان • ووجدت نفسى أجرى وحدى وسط الصحراء الواسعة • وسط طريق مظلم أعرفه جيدا • طريق عبرته معك • طريق عرفته من خلال قصصك وحكاياتك ، فسرت بمفردى أبحث عن ملحمتك •• دائما نفس الملحمة • البطل الذى يصــارع بمفرده لأن أحدا لا يفهمه • تلك الملحمة الخـالدة لانسان لا يعرف الخضـــوع للخوف ، للأجواء ، للأيدولوجيات ، للمبادىء المطلقة ، أيا كان لونها • انها المــأساة الخالدة لانسان يفكر بعقله ويموت ضحية للآخرين •

وقعت فى حبه كاتبا وأديبا صحفيا ، ابن ذوات سابق •• أصبح ماركسيا وشيوعيا ذاق مرارة التعذيب ســنوات طوالا تحت حكم حركة ١٩٥٢ • معه تعلمت قاموســا لغويا جديدا اسمه الزنزانة ، الأردى والتشريفة • فتحت أعينى لأول مرة

على عالم كنت أجهل وجوده • بسنوات عمرى الخمس والعشرين لم أكن أعرف أكثر من جدران الجامعة الى جدران البيت وتربية الأولاد • عبرت سـور الجامعة وتركت خلفى عالما يختلف تماما عن ذلك الذى بدأته بحياتى العملية فى التجربة الصحفيـة والأدبيـة •

التنين فى الأساطير القديمة له شـكل مخيف ومرعب • ثعبان ذو أجنحة ، له عدة رؤوس وألسنة متشعبة • أو تمساح عملاق ، يقذف بالنيران واللهب من حدقتيه • يلتهم العـذارى والأطفال الصغار • يطلق الدخان من أنفه ، يلتهم كل من يقترب من مملكته • والحيـاة فى جوهرها لا تختلف كثيرا • أحيانا لا نستطيع أن نعرفها لأن صورتها هى الواقع المبهم ، لوضـع موجود نعيشه لكن قد لا نراه بوضوح •

تعود أن يصحبنى وسط الأحياء الشعبية الفقيرة • كنت أجلس الى جانبه داخل السيارة أحملق فى حياة النـاس من حولى • ثم فى دهشة أعود وأنظر اليه لأتأمل ذوقه الرفيع وأناقته المعتادة • هـذا المزيج العجيب لم أدرك حقيقته فى ذلك الوقت• بينما يقود السيارة كنت ألمح حبات الدموع تترقرق فى عينيـه الزرقاوين • أمام صمتى وجمودى تعلق بشدة بيدى وقال :

ــ هؤلاء هم أصحاب البلد الحقيقيون •

قلت دون أن أدرى :

ـ هنا الفقر والقذارة .. لا أعرف كيف يعيش هـؤلاء الناس وسط مستنقعات الوحل .

نظر الى وقال بصوته الحانى العطوف :

ـ الفساد يقتل الضمير والقهر يولد الانفجـار والعنف يمسح كل صور الرحمة ومع الفقر لا وجود لكرامة الانسان .

وتسرعت بالرد :

ـ أنت لم تعرف الفقر .. أنت ابن أحـد باشـوات الصعيـد .

فى شارع هادىء على شاطىء النيل توقفت السيارة . ومع نسمة الليل وتحت ضوء القمر احتوانى بين ذراعيه ثم قال :

ـ فى أقصى الصعيد عندما كنت غلاما صغيرا رأيت أعمامى وهم يطلقون الرصـاص على الفلاحين فى الأرض . رأيت نفس هؤلاء الفلاحين وهم يغمسون لقمة العيش فى بقايا مياه المطر ليأكلوا . أتريدين أن تسمعى المزيد ؟

أمام جمودى وصمتى أكمل حديثه :

وعندما كنت فى نهاية المرحلة الابتدائيـة ، قرر طابور من الفصل الذهاب الى أحد الأحياء الشعبية لنشترى الهوى .

وفى تلك الحجرة الصغيرة الخانقة جلسنا الواحد بجانب الآخر على الكنبـة الخشبية أمام السرير الواسـع الذى اعتلتـه زوجة « الكمسرى » وابنتها ذات الأربعة عشر ربيعـا . تلك المرأة التى تبيع جسدها أمام ابنتها الشابة من أجل عدة قروش تقاوم بها الفقر . بمجرد أن جاء الدور على أول الطـابور فتحنا الباب جميعا . لنجرى على السلم الخشبى هاربين الواحد خلف الآخر . خرجنا الى الشارع لنفرغ كل ما فى أجوافنا من بقايـا الطعام والعصـارات الهضمية . منذ ذلك الوقت وبعد هـذا المشهد الذى بدأناه فى سنوات مبكرة من العمر ، تحول كل منا الى طريق . فهناك من أصبح زير نساء ، وهنـاك من تحول الى السياسة وهناك من فضل الشذوذ وهناك من اعتنق الدروشة .

منذ ذلك الوقت أصبحت أرق لكلماته . أستعذب عباراته. أتأمل ملامح وجهه وتقلصات فكه . وخفت من جسده العارى . خفت أن ألمح علامات السياط على بدنه . تلك العـلامات التى عرفت طريقهـا اليه مرتين .. فى عهد الملك فاروق .. ومرة ثالثة .. فى عام ١٩٥٦ ، ثم ١٩٥٩ ، ثم على مدى سـنوات بلغت العشرين تقريبا . عشقت معه الأرض ، الطين ، النيـل وضوء القمر . فما يحدث فى الأساطير يحدث أيضا فى الحياة . وعندما يبدأ الانسـان بالعطاء تبدأ المغامرة ، فترة الاختبـار

والتجربة ، ثم تعود الأمور الى طبيعتها وفى النهاية يجىء وقت التحدى ، حيث يختفى الموت . ولا يبقى فى النهاية الا الوحدة والنسيان والألم .

كنت اليوم والغد بالنسبة اليك . رأيت فى ما لم أراه فيك وفى نفسى فى ذلك الوقت . لذا كم أتمنى أن تعود بى الأيـام والليالى الى الوراء لأعيش الى جانبك مرة أخرى ولكن بشكل أفضل وبوعى أكبر . أعيش وأنا أعرف أن الموت محقق والفراق أكيد دون أن تأخذنى سكرة الحيـاة الخالدة . تصورت أنك باق الى جانبى الى الأبد فلم أشغل نفسى باغتنام كل لحظـة تأتى بها الحياة . توهمت أن الساعات والأيام والسنين ما زالت طويلة .. طويلة .

داخل ذلك المحراب كنت تقرأ لى ، أنصت أنا لصـوتك وأتأمل ملامح وجهك ، تحكى لى ما قرأت ، استوعب ما يناسبنى دون أن أدرى . وكنت تضحك فرحا لاصرارى وعنادى . فى لحظة فريدة من عمرى استبد بك الحب والشـوق . رأيت نظراتك المشتعلة بالنداء ..وعندما رأيت المقاومة فى نظراتى الغاضبة .. امتدت يداك تمسح شعرى .

فقلت لك بسنوات العمر الشابة المغرورة :

ـ تعلمت أن من تتنازل مرة ، تتنــازل عدة مرات ..
فالأمر يصبح بعد ذلك فى منتهى السهولة .

نظرت الى برقة وقلت :

ــ هذا غير حقيقى اذا كان الأمر يتعلق بالحب والصــدق .
وأنا أكبرك على الأقل بعشرين عاما . وهــذا يعنى أنك آخر
حب حقيقى بالنسبة لى . لأنك الطهر الذى حلمت به طيلة حياتى.
فلا تندمى على لحظة صدق تتقاسمها سويا .

بالفعل لم أندم حتى هذه اللحظة الا على غدر الســنين
ووهم الأيام . لم أندم الا على الجبن الاجتماعى الذى حرمنى
من المخاطرة ومواجهة الآخرين . وظننت أننى لو وضعت نفسى
فى قالب لاحتفظت بجميع الخيوط فى يدى .

هذه الغابة الكثيفة من الأشجار تقع على شاطىء البحر .
نسمات الليل حملت الينا رائحة ثمار التين العطرة . من بعيد
لاح لنا الطــاهى وهو يقف أمام الفحم منهمكا فى شى السمك.
همت سارحة تاركة نفسى لصوت الأمواج لا أفكر الا فى تلك
اللحظــات التى نسرقهــا فى غفلة من الزمن . أفقت على يديه
تحوطانى بحنان . ابتسمت اليه . فقال :

ــ تتزوج .

كلمة واحدة نطق بها فى ذلك اليوم البعيد . تصورت أنها دعابة أو لحظة اندفاع من ايقاعه السريع المعهود . فضحكت ببلاهـة .

استبد به الغضب .. نظر الى بحـدة . هزنى بشـدة وقـال :

ــ لمـاذا لا توافقين ؟

قلت وأنا أحاول التخلص من قبضة يده التى آلمتنى :

ــ انه الدور الذى على تأديته .

رد بسرعـة :

ــ أنت تتعللين بالأمومة . تريدين أن تثبتى لى أنه لا مفر ولا حـل .

قلت بصـدق :

ــ هذا غير حقيقى . لكننى ببساطة لا أتصـور أن يدفع الآخرون ثمن أخطـائى .

ــ أما زلت تتحدثين عن الحب وكأنه خطيئة ؟

ــ انها اللغة التى تعلمناها وشربناها ونحن صغار .

كما اندلعت نيران ثورته وغضبه ، اندلعت نيران الحرب

ليزداد غليانه . لم يعد للغد معنى أو وجود بالنسبة اليه طالما انعدمت الانسانية . ولم يكن هناك فرق لديه أن يكون داخل أو خارج الزنزانة ففى الحالتين هو مكبل بالقيود . كما لم يكن هناك فرق أن يكون حيا أو ميتا ، الفرق الوحيد هو أنه مازال يتنفس . لم يكن فى استطاعتى أن أجعله ينسى صقيع المعتقل ، لكننى تمكنت من اقناعه بكتابة كل ما حدث . أن ينقل كل ما بداخله على الورق وكما كان يحفزنى على الامساك بالقلم وعدم الخوف . فعلت معه نفس الشىء وطلبت منه أن يكتب ما حدث ، من أجلى .

كنا نجلس على شاطىء النيل بضع ساعات قبل الغروب لتقرأ لى ما كتبت . فأحسست أن الواقع على الورق أشد ألما مما كنت تحكيه لى . وأحسست فى هذه اللحظات الى أى مدى كنت قاسية عليك بطلبى هذا . فقد رأيت بعينى أنك تعيش التجربة مرتين . مرة عشتها فى الواقع ومرة عشتها على الورق . لكننى كنت آمل أنك بمجرد أن تفرغ آلامك سوف ينتهى عذابك .

كنت واهمة فما تضمنته صفحات حياتك كان لا يمكن أن تحكيه لى وأنت تنظر الى فى عينى . فتلك القاعدة التى تسمح بانتهاك أعراض الرجال والتى تقبل أن يموت مسجون

قتيلا دفاعا عن عرضـــه ، ما هى الا جرح فى وجه تلك العاصمة الحديثة وحضارتها وكرامتها •

وهنا صرخت فى وجهى قائلا :

ــ ان فضح الجريمة هو الأسلوب الوحيد لمنع تكرارها•• وحتى تلتئم جروحى •• حتى لا تدمى من جديد طلبت منى كتابة ما حدث •• من أجل ألا يحدث ما قد حدث •

لم أكن أتصـــور أن تفريغ تلك الشحنة الغاضبة بداخله كان يستوجب أو يتطلب منى وقفة شجاعة الى جانبـــه • حتى جاء ذلك اليوم الذى كرر فيه طلبه ولكن بشكل مختلف هـــذه المرة اذ قال :

ــ تعالى معى •• فاننى راحل عن هذه العاصمة •

ولم يتلق منى الا الرفض •• فلم أكن أبدا تلك المغامرة • فى اليوم التالى عندما ذهبت لأبحث عنه كان قد رحل بعيدا •• رحل دون أن يترك لى كلمة واحدة ••

***

ان الحزن لا يزيل الألم •• والبكاء لا يعيد من ضـــاع والدمـــوع لا تضـــمد جراحا • حملت « ايزيس » وليدهـــا « حورس » وطافت به البـــلاد من صعيدها الى دلتاها لتجمع

أشلاء زوجها « أوزوريس » تريد أن يعود النماء والحيـاة الى أرض العاصمة التى هرب منها أشرف وأحسن أولادها . انها صورة مكررة لحيـاة الأولاد ، الآباء والأجداد . انها العاصمة التى تعيش فى القـاع عندما تجف الأقلام ، ويسـود الصمت والظلام وينزوى الحب ولا يبقى سـوى الحزن الذي يكوى الضـلوع .

انتظرت لا أذكر الى متى ، ربما عام أو أكثر بقليل . ترقبت عودته بين لحظـة وأخرى . الاحساس بداخلى يؤكد لى أنه سيعود . ما عشته معه خـلال سنوات طوال يقول ان الرباط بيننا ليس من السهل حله . ومهما بعدت الأيام فاننـا حتما سنلتقى من جديد . كنت أتتبع أخباره من بعض الأصـدقاء والمراسيل فيتأكد لى أن الحب باق . راسخ مثل أعتى الجبال. وكما تتطـاير الكلمـات فى الهواء تطـايرت قصاصات الورق والصفحات التى كان يكتبها لى . تحللت وسط لهيب الخوف والفزع ولم يبق منهـا الا تلك العـلامات والآثار التى ظلت محفورة فى النفس والروح .

كما تعود أسراب الطيور فى الربيع الى عشها ، عاد مع تفتح الزهور . جلست فرحة الى جانبـه فى السيارة ونحن نجوب وسط العاصمة بعد أن غلبه الشـوق والحنين للأرض . نظرت

اليه لعلى أجد تفسيرا للمحة الحزن التى علت وجهه والتى حاول اخفاءهـا عنى .

قـال :

ـ الويل لمن يريد أن يغير العالم .. وجدت الرايات كلها، وجدتها من حولى ملطخة بالدماء . الاستبداد معروف ، له وجه واحـد . أن يكون فى الشرق فى الغرب ، بالأمس ، اليـوم أو غـدا .

ـ هذا يحدث دائما للكتاب ، للشعراء ، للفنانين . هؤلاء أصحاب النفوس الثائرة على الأوضاع . آن الأوان أن تفتح عينيـك .

ـ الحياة بدون هؤلاء الناس لا معنى لها . حتى لو كان نضالهم ضربا من الجنون .

ـ انتظر .. لابد وأن الحب سوف ينبت يوما زهورا يانعـة .

لكن ماذا كنت أعرف أنا عن الانتظار وعن سنوات العمر التى تجرى ؟ عن نوع العقـاب الذى ينزل بالانسـان الذى يحاول أن يبحث عن عالم أفضل . من ذكرى سـنوات حانيـة لم يفسدها هذا الزمن الفاسـد ، جاءت لحظة حانية وسط نهر من العذوبة والرقة لتكون ومضة نور ، شعاع يمكن أن يعيش

الى الأبد • مع ذلك كان لا يمكن أن يدوم هـذا أكثر من تلك الليلة عندما قال لى بصوت أجش :

ــ لا تنسينى •• لا تنسينى أبدا ••

أحسست فى هذه اللحظة ان هناك جرحا ما زال يؤلمـك حتى لو لم يلمسه أحد • عذابات ما زالت تختلف عن عذابات الآخرين • بالرغم من كل هذا الاحتواء كنت مازلت تشعر بالبعد والوحـدة •

بعد أن مالت الشمس فى حضن النيل • قلت لى :

ــ هيا لنتناول الشاى عند شقيقتى •

بطول شاطىء النيـل الممتد سرنا نستمتع طيلة الطريق بمناظر الخضرة الخلابة • هذه الأشجار المتراصـة ظللت بفروعها على هـؤلاء الذين جلسـوا وسـط الزرع يستمتعون بفترة الغـروب •

كان كل شيء هادئا حتى عند شقيقتك • كالمعتاد رحب بنا الخـدم منذ أن لمحوا السـيارة من بعيد أسرعوا بفتح باب الحديقة ثم الجراج • كنت دائما أتعجب من حب هؤلاء العاملين لك • كنت تتحدث اليهم بتواضـع تداعبهم ثم لا يفوتك أن تلقى فيهم محـاضرة سياسـية • تلقنهم معـانى حقوقهـم ومساواتهم • كنت أرى فى أعينهم تلك النظرات الحائرة التى

تريد أن تفهم لمـاذا ؟ لمـاذا يختار ابن الذوات الدخول الى السجن والبهدلة ؟ ثم تأتى الى الخادمة الشابة ليست أكبرهم سنا لكن أكثرهم أهميـة فى المنزل وبالنسبة للعائلة . تميل الى أذنى وتقول : « البيه بتاعنا طيب .. وأنت كمان طيبـة .. أرجوك لا تتركيه .. » ثم من خلف ظهرى تسأل شقيقتك : « لمـاذا لا يتزوجان ؟ . البيه فى حاجة الى قلب يحبه ويخاف عليه . » وتحكى لنا شقيقتك ما تقوله الخادمة ونضحك .

لكن الكلمات والمعانى بداخلنا كانت أكبر بكثير من مجرد الابتسامة أو الضحك . ففى نفس كل منا أمنية واحدة هى أن نظل سـويا ولا نفترق . نتقاسم كل شىء الخروج ، السـهر ، الأكل ، النوم ، وأبدا الشجار . فلم يحدث يوما أنك أغضبتنى. وربما أكون مبالغة لكنها الحقيقة ، لو قلت انك الانسان الوحيد فى كل هـذا الكون الذى لا أذكر له مرة أنه أغضبنى . بل على العكس فعندما كانت تتملكنى العصبية لضيق أفق وعـدم فهم مقـابل سـنوات شابة من العمر ، لم تر بعد الدنيـا . كنت تضحك وتسرع وتدللنى ، كما لو أننى شىء ثمين وغـال تخاف عليه من الخدش .

فى هذا اليوم الذى لا يبرح خيالى للآن . جلسنا نتنـاول الشاى فى الصـالون الصغير . كنا نتحدث ونضحك ، شقيقتك

وزوجهـا والأولاد . عندما استأذنت وتركتنا لتدخل احـدى الغرف ، لم أشك لحظة أن القدر كان يتربص بنا حتى وصلنـا الى هذا المكان . فلم تمر الا دقائق وجاءت ابنة شقيقتك لتحدث أمها فى أذنيها . لم أسمع ما دار . نهضت شقيقتك على الفور . وثوان أخرى ثم عادت لتنـادى زوجهـا وهى فزعة وتقول : « النجدة انه ملقى على الأرض » .

وجرينا جميعا الى غرفة النوم ورأيت ما لم أكن أتمنى أن أراه فى حيـاتى . رأيتك ملقى على الأرض بجـانب السرير فى حالة تشنج واضحـة تحـاول النهوض والتعلق بملاءات السرير لكنك لا تستطيع . عندما رأيتنى أخذت تصرخ بينمـا خرجت الكلمات من فمك بصعوبة كنت تقول : « اذهبى عودى الى البيت اذهبى ولا تجلسى هنا » .

وخرجت فورا من الغرفة حتى تهدأ . فقد كان من الصعب عليك أن أراك بهذه الحـالة . كنت لا تريدنى أن أتألم . كنت تعرف ما سـوف يفعله هذا بى . كنت تريدنى أن أعود الى البيت قبل أن يحل الظـلام . فقد كنت لا تتركنى أبدا بمفردى الا أمام البيت حتى تطمئن أن كل شىء على ما يرام . وصورت لك شقيقتك أننى ذهبت وعدت الى البيت حتى تهدأ وتطمئن . لكن فى الحقيقة أننى بقيت واقفة بجـانب النافذة فى الصالون

الصغير • جامدة وقفت أتحدث الى السماء أدعو الى الله أن ينقذك وينقذنى • لم أكن أعرف من أى شىء ، فلم أكن أفهم حقيقة ما حدث • لكن كنت أستشعر أنه شر كبير قد ألم بك •

بعد أن زالت الأزمة وجـاء الطبيب • اقنعتنى شقيقتك بالعودة الى البيت • قبل أن استسلم لرأيها دخلت غرفتك على أطراف أصابعى ورأيتك مستسلما فى نوم عميق بفعل العقاقير والأدويــة •

خرجت الى الشارع وأنا أبكى • لا أعرف فى ذلك اليوم كيف وصلت الى بيتى • فلم أكن أتصور أن كل هذه الانفعالات المتضاربة ستظل تجول فى صــدرى أحملها طيلة هذه السنين حتى اليوم •

***

الاحساس بالعجز شىء منفر ، أدرك مدى قسوته اليوم ، هذا بعد أن اكتشفت عبر السنين المـاضية كيف يقف الانسان معوقا أمام الأحداث • وقفت مكتوفة الأيدى لا أستطيع أن أقدم خطوة أو أخرى • لم أعد أعرف الخطـأ من الصـواب ؟ الحب من الكراهية ؟ القسوة من الانسانية ؟

المعـانى الجميـلة كانت تنادينى أن أكون الى جانبـه

ولا أفارقه ، ليس فقط عندما يجتاز هذه الأزمة الصحية ولكن الى الأبد . كان يمكن أن يحدث هـذا لو كنا بمفردنا فى هذا الكون . أو لو أحس الناس بما أحسسنا به نحن . وهـذا مستحيـل !

أدركت فيما بعد أن الداء قد أصابك فى مقتل . وأنه أول انذار لك بجلطة فى المخ . هـذا العقل الذى تحمله تاجا على رأسك أصبح مهددا . لم يعد مطلوب منك أدنى انفعال وهذا هو المستحيل بالنسبة لكائن عاش نبض حياتك . فالنفس بالنسبة اليك شعلة ، والنظرة شرارة متقدة ، والعواطف والمشاعر متجددة دائما . كنت تقول لى ان الحب مثل الطفل الصغير ، الوليد . ينمو ويكبر . وعند بلوغه نهاية كل مرحلة ، يتجدد مرة أخرى فى مرحلة جديدة ونهاية جديدة . وهكذا يستطيع الانسـان أن يفرق بين الحب الحقيقى وبين الوهم .

رضيت بتلك الدقـائق التى كنت أقضيها بجانب فراشك بعد أن يذهب الجميع . كنت أجىء اليك خلسة . كنت تتشبث بيدى كمن يتمسك بالحياة . وكنت أتمسك بك حتى لا يخطفك منى أحد . فى هـذه اللحظات الفريدة لم نكن نبغى الا البقاء ، حتى على ما نحن عليه من تهديد .

كان من الطبيعى بعد أن تتماثل قليلا للشفاء . أن تعود

الى بيتك لأعرف فيما بعد أن الأزمة هـذه المرة كانت أشـد من الأولى • وأن الجلطة أصابت الجزء الخاص بالذاكرة وأنك فقدت كلية القدرة على الكتابة أو القراءة ، حتى الكلام أصبح بالنسبة اليك غير مرتب • كان على مواجهة هـذا الموقف الجديد الذى لم يكن فى الحسبان • ولم يعد أمامى الا متابعة الحـالة من بعيد مع الطبيب من خلال بعض المكالمـات الهاتفية للاطمئنان والانتظار والصبر •

لن يتصور أحد مقدار فرحتى عندما تلقيت منـك أول مكالمـة تليفونية بعد تحسن حالتك • أقول تحسن لأن الداء ظل كما هو لكن مع استخدام الأدوية كان يمكن السيطرة عليه والتحكم فيه قليلا ، هذا كان يعنى أن الخطر باق •

خرجنـا سويا لأول مرة بعد شـهور طويلة من المرض ، كنت أنا التى تقود السيارة هذه المرة • فلم تكن تستطيع ذلك • ذهبنا الى ذلك الفندق المعروف القابع على حافة النيل وجلسنا حيث اعتدنا الجـلوس • نفس الركن ونفس المقعـد • جـاء الجرسون مرحبا بنا كعادته متسائلا عن هذه الغيبة الطويلة • وعلى نفس أنغام عازف البيانو الذى احتفل بنا بلحننا المفضل اكتشفت أنك تغيرت • لم تعد قادرا على التركيز ، الكلمـات تخرج من فمك أحيانا غير مرتبـة وغير صحيحـة الشىء الذى

يشعرك بالضيق والحرج والعصبية . ذاكرتك كما هى . كنت تذكرنى بكل شىء بيننا حتى أدق التفاصيل . وعندما تعجز الكلمات على شفتيك تنطق عينـاك بكل المعانى . تلك العينان ظلتا كما هما لا تعرفـان التعب تحركهما المشـاعر ، العواطف والحـب .

أدركت فيما بعد أن لقائى بك سـوف يضرك أكثر من كونه سـوف يساعدك . هذا القلق الذى أسببه لك .. وتظل تعانى منه لأيام طوال قد يكون سببا آخر فى أزمة جديدة . لذا حكمت على نفسى وعليك بالابتعاد شيئا فشيئا حتى تعتاد هذا الوضع الجديد . لم يكن الأمر سهلا بالنسبة لى أو لك . فقد كنت أتعمد على ألا أرد على مكالمـاتك الهاتفية وأنا أذوب شوقا لسماع صـوتك واللقاء بك . لكن خوفى عليك كان أكثر بكثير خاصـة أن شقيقتك أدركت موقفى وخوفها عليك هى الأخرى . لكن كان من الصعب عليهم جميعـا تهدئتك . لم ينقذك من نفسك الا العقاقير والأزمات التى تلاحقت فيما بعد لتظل لفترات فى المستشفى . فأحيانا كنت أعرف ما يحـدث لك فأجىء لأراك خلسة . وأحيانا كنت لا أدرى بما يحدث .

مرت السنوات ثقيلة طويلة لألتقى بصـديقة لنا فى احدى السفريات الطويلة التى كانت تقلنى بعيدا هربا من كل شىء .

تلك الصديقة كنا نلتقى عندها أحيانا عندما تضيق بنا الدنيا وتزداد علينا المشكلات . علمت منها سوء حالتك وكيف أنها ظلت تخفى عنى ذلك . كان لابد أن أظل بعيدا . أنا الانسانة الوحيدة التى يتحمل قربها منه . حرم منى وحرمت منه .

عندما عدت الى العاصمة ذهبت فى أحد الأيام للقاء صديقتى كما كان متفقا بيننا لتعطينى بعض أوراق العمل . هناك وفجأة عند مدخل العمارة . لمحته خارجا برفقتها . كانت الدهشة واضحة على وجهى فقالت لى انها لم تكن تعرف أنه سيأتى اليوم لتذهب برفقته لانجاز بعض الأوراق الرسمية خاصة بالعمل لا يستطيع انجازها بمفرده .

لا أعرف فى لحظتها ان كنت سعدت بهذه الصدفة . لأن التعبيرات على وجهك كانت غريبة حرت فى تفسيرها .

خفت من هذه الصدفة .. لماذا الآن ؟ لماذا بعد هذه السنوات ؟ لابد أن قلبك قد شعر بما أحسست به لحظتها، أحسسنا سويا بنفس الشىء لكننا لم نعقله . لأنه غير مسموح للبشر أن يعقلوه والا فقدوا عقولهم .

أصر أن أصحبهما الى تلك المهمة وركب هو بجانب السائق وركبت الى جانب صديقتى صامتة ، يدور كل شىء فى عقلى ولا أجد أى تفسير للقائى به اليوم .

بينما انهمكت صديقتى فى بعض الاجراءات الرسمية الخاصة به والتى لم يعد يقوى عليها وقفنا جانبا فى القاعة الواسعة . ليتنى أتذكر تفاصيل الحديث الذى دار بيننا . لكن كل ما بقى محفورا بداخلى هو أنه كان سعيدا بالكلام معى . يتكلم .. ويتكلم .. كانت كلها أشياء عادية لا معنى لها بالنسبة الينا . لكن كل ما كان يهمه هو سماع صوتى . وكل ما كان يشغلنى هو قلقى عليه . على الرغم من اضطرابه الواضح الا أنه حاول السيطرة على مشاعره الدفينة التى لم ينجح فى اخفائها عنى هذه اللحظة . حاول أن يبدو جادا ، صارما ، حادا أحيانا . لكن القناع لم يفلح فى اخفاء ما هو غال وثمين وباق .

عندما انتهينا من المهمة أوصلنا مرة أخرى حتى منزل صديقتى . وهنا وقف ليصافحنا . وقف أمامى بجدية بالغة لتتلامس أيدينا ولأرى على وجهه تلك التعبيرات التى حرت فى تفسيرها هذه اللحظة والتى لن أنساها ما بقى لى من العمر .

***

عندما أخذتنى الأيام فى دائرة مفرغة . عشت وسط تلك الحياة الممزقة بين مظاهر الجهل ، الغرور والأوهام . انه الصراع بين ارادة الحياة وارادة الحرية . فمن عجائب ذلك العصر أننا نجد رجالا ضعفاء يحكمون شعوبا عظيمة . أصبحت أضيق

بالمـاضى القريب فوجدت نفسى أرتد الى المـاضى البعيد • ووجدت نفسى أتمرد على كل شىء أعيشه فى الواقع • عندما أطالع الصحف لا أرى الا التناقضات والتجاوزات • تضـارب وشكاوى لا حدود لها • حتى مكان العمل أصبح بؤرة للمنافع الشخصية • فقررت الانزواء والانعزال وسرت مثل الأسـد الحبيس بين أربعـة جـدران • أجـوب مكتبى ذهابا وايابا لا يتملكنى الا الشعور بالاحباط والملل • اكتشفت أن هـذا التجـاهل اهمال مقصـود لقتـل العزائم والقضـاء على من تسوله نفسه لاصلاح أو المناداة بكلمة حق • شىء وحيد انتزعته رغم أنف المنتفعين هو الاحترام •

طويل الصمت ، بارد مثل الصقيع • وقررت أن أجد الحل بنفسى • فما يحدث فى العمل هو صورة مصغرة لمـا يحدث فى الخارج ، فى الشارع ، العاصمة بأسرها • فعندما قامت حركة يولية ١٩٥٢ ، جاءت لمحاربة الفساد • عاشت العاصمة تاريخيا فترات فساد معروفة • والفساد السياسى يؤدى دائما الى الفساد الاقتصادى والاجتماعى •

الغريب أن شيوع الفساد فى العاصمة لم يعد يثير أحد حتى كاد أن يكون شيئا مألوفا وعاديا • هـذا الخلل أصبح يهدد سكان العاصمة الذين يعيشون تحت خط الفقر • الشىء

الذى جعل الناس يريدون الحصول على لقمة العيش بأى صورة وبأى وسيلة ولو كانت غير مشروعة . لذا انتشرت الجريمة بكل أشكالها . لم يعد أحد يشعر بالأمان . الكل يرتاب فى الآخر . ولو كان الفقر رجلا لقتلته . هذه مقولة حقيقية لم تأت من فراغ . لأننى أحسست لأول مرة فى حياتى بالعذر لهؤلاء الذين يسرقون من أجل لقمة العيش أو هاتيك اللواتى تبعن أجسادهن من أجل اطعام أطفالهن . شىء غريب لم أكن أتصور فى يوم من الأيام أنه سيجىء بى الوقت الذى ألتمس فيه العذر للمخطئين . لا أعرف ماذا حدث لى ، كلمات ومعان ترن فى أذنى .

أتذكر ذلك اليوم الذى كنا نجوب فيه العاصمة بالسيارة أثناء الليل وبعد أن تهدأ حركة الناس فى الشارع . فى هذا اليوم رأينا رجلا عجوزا يفترش كوما من القمامة التى انبعثت منها أفظع الروائح . نظرنا الى بعضنا فى لحظة فريدة فأسرعت بالقول :

ـ انه سعيد هكذا .. فهو لا يشعر بما نشعر نحن به .

لكنك قلت :

ـ انها مسئوليتنا نحن .. اذن ما فائدة أننا تعلمنا

تثقفنا وفهمنا أشياء دون الآخرين •• رسالتنا أن نمنع حدوث مثل هذه الصور اللاانسانية •

سكت ولم أكن فى حاجة الى اقناع ، فهذه الحقيقة التى نطق بها لسانه كانت بداخلى • لكننى كنت أحاول الضحك على نفسى حتى لا أتألم • لكننى تعلمت بعد ذلك أن الهروب من الألم لا يعنى الشفاء منه •

مرت حياتى بعد ذلك وأنا أحاول أن أفلسف كل ما يحدث حولى من سلبيات ومعوقات • مرت عدة شهور حتى طالعتنى أمى فى أحد الأيام بخبر رحيلك • لم تشأ أن تقول لى عندما علمت بذلك من الصحف فى اليوم نفسه • لكنها انتظرت يومين ثم قالت لى الخبر الذى لم أكن أتوقعه بعقلى • لكننى حتمـا أحسسته عندما التقينا صدفة لآخر مرة •

أصابنى الوجوم لكننى لم أذرف دمعة واحدة • فدموعى قد جفت منذ سنوات •• تلك البحور التى ذرفتها منذ أن سقط لأول مرة •• فى نفس هذا اليوم خرجت الى العمل • قدت سيارتى واذا بى فجأة أحس بك تجلس بجـانبى •• كان وجهك مبتسما وكأنك شفيت تماما وعدت مثل الأيام الأولى التى عرفتك فيهـا • مددت لك يدى على المقعد الخـالى بجانبى • كنت واثقة أنك هنا • فرحا بعد أن نزعت عنك ثوب الجسد ، ثوب

الحياة المزيفة . فى هـذه اللحظة أدركت تماما أنك عدت الى من جديد . أقرب من ذى قبل . بلا حدود .. بلا رقباء .

قاومت احساسى مرارا بأن أسأل عن مكان قبرك . أردت أن أذهب اليك حيث أنت . لكننى تراجعت مرة أخرى لأقول لنفسى ان ذلك القبر أحمله فى صدرى . انه قلبى الذى احترق مرارا من أجلك ومن أجـلى . انه نفس القـلب الذى عرف الفرحة الى جانبك . لذا فضلت أن يكون قبرك بداخلى أحمله معى حيث أذهب .. أحمله لتكون معى ولا تفارقنى مرة أخرى.

***

ينـاير ١٩٩٢

الفهـــرس

صفحة

صــدر للكاتبــة :

— **التاريخ يصنعه المرضى :**
ترجمة من الفرنسية الى العربية — دار المعارف ٠

— **حــوار الحــب :**
مجموعة قصص قصيرة — الهيئة العامة للكتاب ٠

— **رسائل الى ابنتى مشاكل الحب والزواج والجنس :**
دراســة — دار مدبولى للنشر ٠

— **عزيــزى فــلان :**
ترجمة من العربية الى الفرنسية — الهيئة العامة للكتاب٠

— **ســعدية :**
مجموعة قصص قصيرة — دار مدبولى للنشر ٠

— **مــن انـــا ؟ :**
رواية — الهيئة العامة للكتاب ٠

— **ليــلة القــدر :**
ترجمة من الفرنسية الي العربيــة — دار مدبولي للنشر٠

— **عيد ميلاد الأميرة :**

أطفال — الهيئة العامة للكتاب ٠

— **جسم الانسان :**

أطفال — دار المعارف ٠

— **حوار الشرق والغرب :**

سلسلة مقالات — دار المعارف ٠

— **الطفلة المدللة :**

أطفال — دار المعارف ٠

رقم الايداع ١٩٩٥/٩٥٧٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 4568 — 8

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب